

خالد محمد خالد

الدولة

في الإسلام



دار السلام

خالد محمّد خالد

الدولة

في الإسلام



دار ثابِت

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى { صفر ١٤٠١
يناير ١٩٨١ }

الناشر دار ثابت للنشر والتوزيع ٩٢ (أ) شارع محمد غريد — القاهرة
ص.ب ٦ باب اللوق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ

وَلَا تَتَّبِع أَهْوَاءَهُمْ

وَاحْذَرَهُمْ أُنْ يَفْتِنُوكَ

عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

- ١ -

في عام ١٩٥٠م ظهر أول كتاب لي ، وكان عنوانه :
« من هنا .. نبدا » .

وكان ينتظم أربعة فصول ، كان ثالثها بعنوان : « قومية الحكم »
وفي هذا الفصل ذهبت أقرر أن الاسلام دين لا دولة ، وأنه
ليس في حاجة الى أن يكون دولة . . وأن الدين علامات تضيء لنا
الطريق الى الله وليس قسوة سياسية تتحكم في الناس ، وتأخذهم
بالقوة الى سواء السبيل . ما على الدين الا البلاغ وليس من حقه
أن يقود بالعصا من يريد لهم الهدى وحسن ثواب .

وقلت : أن الدين حين يتحول الى « حكومة » ، فان هذه
الحكومة الدينية تتحول الى عبء لا يطاق . وذهبت اعدد يومئذ
ما أسميته : « غرائز الحكومة الدينية » وزعمت لنفسى القدرة على
اقامة البراهين على أنها أعنى الحكومة الدينية في تسع وتسعين في
المائة من حالاتها جحيم وفوضى ، وأنها احدى المؤسسات التاريخية
التي استنفدت أغراضها ولم يعد لها في التاريخ الحديث دور تؤديه .

وكان خطئى اننى عممت الحديث حتى شمل الحكومة الاسلامية .

وقلت : ان غرائز الحكومة الدينية تجعلها بعيدة من الدين كل البعد ، ولخصت هذه الغرائز فى :

(١) الغموض المطلق ، اذ هى تعتمد فى قيامها على سلطة غامضة ، لا يعرف مأتاها ، ولا يدرك مداها ، وصلة الناس بها يجب ان تقوم على الطاعة العمياء والتسليم الكلى والتفويض المطلق . .

(٢) ومن خصائصها — كما قلت يومذاك — انها لا تنق بالذكاء الانسانى ولا تأنس له ، ولا تمنحه فرصة التعبير عن ذاته ، لانها تخافه وتخشاه .

(٣) وهى لكى تقنع الناس بضرورة قيامها وبقائها تهيب بجانب الضعف فيهم . فتلقى فى روعهم ان رواد الخير والحرية والفكر والاصلاح ليسوا سوى اعداء لله ولرسوله يحاولون نفي الدين عن المجتمع بنفى السلطة التى تمثله وتصونه .

(٤) والغرور المقدس من شر غرائز الحكومة الدينية ، وهى لهذا لا تقبل النصيحة ولا التوجيه . بل ولا مجرد لفت النظر فضلا عن المعارضة والنقد .

(٥) والوحدانية المطلقة اعنى غرائزها — وهى تحفزها الى مكافحة الراى مهما يكن حكيما ، وقتل المعارضة مهما تكن مخلصه نافعة .

(٦) والجمود الذى تتسم به يجعلها تضيق بكل جديد لان صورة الدين فى ذهنها مرتبطة بكل ما هو جامد وقديم .

(٧) والقسوة المتوحشة هي سيدة غرائزها واكثرها عتوا
ونفوذاً وانها لتحز عنقك وتهرق دمك وهي تصيح من غرط نشوتها :
واها لريح الجنة ..

* * *

هكذا ذهبت انعت واهدم ما اسميته يومها بالحكومة الدينية . !
وهكذا اخذت كل خصائص ونقائص الحكم الاتقراطى
الديكتاتورى وخلعته على ما اسميته « الحكومة الدينية » .. !!
ولم اكن يومئذ اأخذع نفسى ولا ازيغ اقتناعى ، فليس ذلك
والحمد لله من طبيعتى . انما كنت مقنعا بما اكتب مؤمنا بصوابه .

وحين أرجع بذاكرتى الى الايام التى سطرت فيها هذا الراى
وهذه الكلمات لا أخطيء التعرف الى العوامل التى تغشتنى بهذا
الفكر .. والكاتب حين يحيا بفكر مفتوح بعيدا عن ظلام التعصب
وغواشى العناد ، فانه يستطيع دائما او غالبا أن يهتدى الى الصواب
ويقتررب من الحقيقة ويعانقها فى يثين جديد ، وحبور اكيد ، ونحن
مطالبون بأن نفكر دائما ، ونراجع أفكارنا ، ونفكر ذواتنا ونتخلى عن
كبريائنا أمام الحقائق الواقعة .. واذا لم نفعل فسنكون كما قال
« افلاطون » :

« مجانين ، اذا لم نستطع ان نفكر .. » !!
« ومتعصبون ، اذا لم نرد ان نفكر .. » !!
« وعبيد اذا لم نجرؤ ان نفكر .. » !!

* * *

واحمد الله على اننى لست من المجانين ، ولا المتعصبين ، ولا العبيد . . ومن أجل هذا كان من اليسر على أن أستقبل في بشر ومودة هَذَا التفكير الجديد الذى واتانى من طول التأمل والتمعن وتقليب وجوه النظر في حيايد شديد .

ترى ماذا كانت المقدمات التى أوصلتنى الى موقفى القديم من « الحكومة الدينية » ، أو بتعبير أصح ماذا كانت البواعث النفسية والفكرية التى أغضت بى الى ذلك الموقف . . ؟؟

وأود — أولاً — أن أشير الى أن تسمية « الحكومة الإسلامية » بالحكومة الدينية فيه تجن وخطأ . فعبارة « الحكومة الدينية » لها مدلول تاريخى يتمثل فى كيان كهنوتى قام فعلاً ، وطال مكثه . وكان الدين المسيحى يستغل أبشع استغلال فى دعمه وفى إخضاع الناس له .

فالحكومة الدينية مؤسسة تاريخية نهضت على سلطان دينى بينما كانت أغراضها سياسية ، وأصلت الناس سعيراً بسوء تصرفاتها وتحكمها . . وهى فى المسيحية واضحة كل الوضوح بينما الاسلام لم يشهد فى فترات استغلاله ما شهدته وما تكبدته المسيحية ، لا سيما فى العصور الوسطى ، عصور الظلام !!

ولعمل أول خطأ تغشى منهجى الذى عالجته به قديماً قضية الحكومة الدينية ، كان تأثيرى الشديد بما قرأته عن الحكومات الدينية التى قامت فى أوربا ، والتى اتخذت من الدين المسيحى دثاراً تغطى به غزيرها وعارها . .

أجل . فأنى أستطيع أن أخص بواعثى فى ذلك التفكير القديم

واردها الى عاملين اثنين — كان هذا اولهما .. التائر بما قراته عن
الحكومة الدينية المسيحية ، ولذلك تجدنى اقول فى كتابى « من هنا
نبدأ » .

» .. غفى الحكومات الدينية المسيحية ابتكرت وسائل التعذيب
التي لا تخطر للشيطان نفسه ببال ، فكان الخازوق ، ووتد التشهير ،
وصلم الآذان ، وتمزيق الجسد ، ومحاكم التفتيش ، وحرق العلماء
بالنار وهم احياء !! » .

ثم قلت :

» وفى الحكومات الدينية الاسلامية حدثت احوال مروعة ،
حتى ان حاكما دينيا واحدا — هو الحجاج — اباد البقية الكريمة
الصالحة من صحابة رسول الله ، حتى قال عنه «عمر بن عبد العزيز»
« لو جاءت كل امة بخطاياها ، وجئنا نحن بنى امة
بالحجاج وحده لرجحناهم ... !! »

اذن ، فقد كنت فى قمة التائر ببشاعة وجرائم الحكومة الدينية
المسيحية ، ثم عكست الصورة فى غير حق على الحكام السياسيين
فى الاسلام واعتبرتهم حكومة دينية اسلامية .. !!

ومضيت ادحض ما اعتبرته حكومة دينية فى الاسلام بنفس
القوة التى ادحض بها الفكر الانسانى الرشيد الحكومة الدينية التى
قامت فى ظل الكنيسة وكانت اكثر خطرا على المسيحية من الشيطان
نفسه !!

من قال ان الحجاج حاكم دينى .. ؟ وهل فى الاسلام كهنوت

يستطيع نى حاكم ان يستمد منه سلطانا مطلقا وفي ذات الوقت يكون مقدسا . .؟؟ لا . ومع هذا فقد اقتنعت قديما بهذا الذى يبدو لى اليوم تجنيا وخطأ .

ان الاسلام حتى فى فترات استغلاله من بعض الخلفاء والحكام لم يمنح ايا منهم سلطة بابوية كهنوتية ، لانه لا يتسع لى كهنوت لا فى تعاليمه ولا فى تطبيقاته .

من اجل هذا كان تسمية الحكومات الاسلامية المنحرفة بالحكومة الدينية وتحميل الاسلام وزرها امر مجاف لكل صواب . .

* * *

اما العامل الثانى الذى شكل تفكيرى وموقفى من الحكومة الدينية فقد كان عاملا موقوتا بزمانه . ولكنى جعلت منه قاعدة عامة بنيت عليها حكمى القديم .

ذلك ان « الاخوان المسلمين » كانوا قد بلغوا خلال الاربعينات من الكثرة والقوة والنجاح مبلغا يكاد يكون منقطع النظير .

كانت دعوتهم تسرى بين الناس كالضوء ، وكان الشباب بصفة خاصة يقبل عليها اقبال اسراب النحل على رحيق الزهور !!

وذات يوم والجماعة فى أوج مجدها الباهر ، لا ندرى هل انبثق منها، أو أقحم عليها وتسلل اليها ما سمي يومئذ بالتنظيم السرى . وارتكب هذا الجهاز جرائم منكرة وتوسل بالاغتيالات لفرض الدعوة . . الدعوة التى كانت قد حققت بالاقتناع والمنطق ما لم تحققه

دموة أخرى . . والدموة التي كانت لباقية مرشدتها الاستاذ حسن البنا رحمه الله واخلاصه يفتحان له الأذان الصم والقلوب الغلف ، ويسلسان له قياد الجهاهير كافتهم ومثقفهم .

لفتت حوادث الاغتيال التي مارسها ذلك الجهاز السرى انتباه الناس وروعت أئسدتهم . وكنت من الذين أقض مضجعهم هذا النذير . وقتلت لنفسى اذا كان هذا مسلك المتدينين وهم بعيدون عن الحكم ، فكيف يكون مسلكهم حين يحكمون ؟؟ !

وتذكرت كلمة المفكر الفرنسى « فولتير » :

« ان الذى يقول لك اليوم : اعتقد ما اعتقده والا لعنك الله ، سيقول لك غدا : اعتقد ما اعتقده والا قتلتك » !!!

على أن ذلك الجهاز السرى اختصر طريقه آنذاك فتخطى وتجاوز مرحلة اللعن الى مرحلة القتل والاغتيال !!

كان هذا هو العامل الثانى الذى جنح بتفكيرى الى التحذير من قيام اى حكومة دينية باسم الاسلام . وكان هذا خطأ آخر وقعت فيه . .

كان الخطأ الاول مضاهاتى الحكومات الدينية الكنسية بحكم الاسلام .

وكان الخطأ الثانى تعميم نتائج ما اقترغه الجهاز السرى باسم الاسلام .

وفى كلا الخطأين كان هناك خطأ فى المنهج ذاته . ففسد جعلت ما تأثرت به من قراءاتى عن الحكومة الدينية فى المسيحية ، وما تأثرت

به من تحول بعض الشباب المسلم من نساك الى قتلة .. جعلت هذا
وذاك «مصدر» تفكيرى ، لا «موضع» تفكيرى !! وغارق كبير بين أن
تجعل الحدث أو الشيء مصدر تفكيرك وبين أن تجعله موضع تفكيرك .

عندما يكون مصدر تفكيرك مانه يقودك فى طريقه هو ، لا فى
طريق الحقيقة . وتبصر نفسك من حيث تشعر أو لا تشعر مشدودا
الى مقدمات وسائرنا نحو نتائج لم يأخذ الاستقلال الفكرى حظه فى
تمعنها ودراستها .

أما حين يكون الشيء موضع تفكيرك مانه يهد تفكيرك المحايد
والمستقل بكل اعتبارات القضية المدروسة دون أن يلزمك بحكم
مسبق يتحرك الفكر داخل اطاره الحديدى الصارم .

الى هذا السبب الجوهرى أرد خطئى فيما أصدرته — قديما —
من حكم ضد الحكومة فى الاسلام ، هذه التى اسميتها بالحكومة
الدينية .

— ٢ —

والآن ، وفى ضوء اقتناعى الجديد بأن الاسلام « دين ، ودولة »
فكيف وصلت الى هذه الحقيقة ؟؟ وما شكل هذه الدولة ؟؟
وما اغراضها واهدافها حين تقوم ؟؟
أما التقائى بهذه الحقيقة ، أو لنتواضع ولنقل هذه النتيجة ..
فقد جمعتى بها فى لقاء سعيد ، العقل لا الوجدان .

لقد توارت الاسباب التى حدثتكم عنها من قبل ، واستقبلت القضية بعقل غير عصى ، ونفس تواقة الى معرفة الحق واعلانه بصوت جهير ، دون أن تجد غضاضة أو خجلا من أن تعترف بالخطا وتواجه الصواب .

قلت لنفسى :

قبل ان يكون هناك اسلام كان هناك عرب . وهؤلاء العرب هم الرعيل الاول الذى حمل راية الاسلام ، وسار بها مشرقا ومغربا .. فهل كان أولئك العرب عنصرا مهيا لان ينشئ « حكومة » او يتقبل تبعاتها ويحملها فى اقتدار .. ؟؟

هل وقعت للعرب قبل الاسلام تجربة مع الحكم فأسسوا دولا وحكومات ؟

انه على فرض انتفاء هذا الامر ، فلن يسلب الاسلام حقه ولا مقدرته على تأسيس دولة .

ذلك أن الاسلام جاء ليكون قوة تغيير عميقة وشاملة .. جاء بغير العقيدة والمجتمع والسلوك .

فحتى لو لم يكن للعرب سابقة مع الحكومة ، فإن الاسلام بخصائصه قادر على تمكينهم من ممارسة هذه التجربة بنجاح .

ومع هذا فسنرى أن هؤلاء الذين نزل الاسلام أول ما نزل عليهم وغيرهم ، كانوا وكان آباؤهم ممن أنشأوا الممالك والامارات .

فقبل مجيء الاسلام يترون ، كان هناك عرب لهم حكومات هم الذين أنشأوها ، وحسرة هم الذين صنعوها .

يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن (١) :

كان في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية مملكة سبأ وحمر وقد بلغت هذه البلاد قبل الميلاد بالفى سنة درجة من الحضارة تدل عليها أطلال المباني الضخمة ، والنقوش الكثيرة . وهناك شواهد كثيرة لهذه الشهرة والعظمة والابهة التى وصلت اليها مملكة سبأ .

كذلك كان هناك من العرب مملكة الحيرة ومملكة الغسانيين . وكان في جزيرة العرب نفسها ملوك من قبيلة كندة ، وكان موطنهم بلاد حضرموت الواقعة في الجنوب الشرقى .

وكان هناك مملكة « معين » وقد سبقت مملكة « سبأ » في الظهور وكانت على جانب عظيم من البأس والقوة .

وتلتها في الظهور مملكة سبأ التى اشتهرت بالثروة والقوة بين ممالك العالم في ذلك الحين ، وبلغ من قوتها أن ردت جيوش « أوغسطس قيصر » عن أسوار مأرب ودحررتها .

وكان لها تجارة واسعة مع مصر ، وسوريا ، وبابل . . ولا تزال سدودها واحواضها تثير اعجاب الرحالة والسائحين . وتدل آثارها وأطلال أبنيتها الفخمة على ما بلغته من العظمة والمجد .

وكان لها أسطول بحرى ينقل تجارتها الى حيث تريد ، كما كان لها قوافل تخترق الصحراء الى الشام وفلسطين لنقل سلعها التجارية

(١) تاريخ الاسلام السياسى ج ١ .

وكذلك كان هناك مملكتا الحيرة وفسان ، قامتتا على حدود
بادية الشام .

وكانت الامبراطورية الفارسية تستعين بمملكة الحيرة على
حرب الروم . كما كان الرومان يستعينون بأمرأ غسان على
الفرس .. !!

وقد استمرت مملكة الحيرة من القرن الثالث الميلادى حتى
ظهور الاسلام . وكان لاهلها اثر كبير في الحضارة العربية . وتعاقب
على ملكها خمسة وعشرون ملكا .

ويقول الدكتور أحمد سوسة في كتابه « حضارة العرب ومراحل
تطورها عبر العصور » .

« تبدأ المرحلة الاولى من حضارة العرب القديمة في
حوالى اربعين ألف سنة قبل الميلاد ، وتنتهى في حوالى
ثمانية عشر ألف قبل الميلاد . وقد عاشت هذه الحضارة
ضمن حدود جزيرة العرب ..

« ... ويرى الخبراء المتخصصون في شئون البلاد
العربية ان الهجرة من جزيرة العرب تمت في الاصل من
منطقة جنوبى الجزيرة . ومنها توجهت الجماعات النازحة
عن جزيرة العرب الى الشمال ، ثم توزعوا على اطراف
الهلال الخصيب في فلسطين وسورية ومصر والعراق ..
« وفي هذه المرحلة من حضارة العرب استطاعت القبائل
العربية النازحة من جزيرة العرب بفضل الحضارة

والخبرة اللتين اكتسبتهما في وطنها الاصلى خلال فترة الازدهار من تأسيس الحضارات السامية العربية الكبرى في مستوطناتها الجديدة . . . تأسست هذه القبائل في مدة قصيرة نسبيا لا تتجاوز ثلاثة آلاف سنة أقدم الامبراطوريات واعظمها مما عرغه تاريخ العالم القديم في تاريخ البشرية اى الامبراطوريات الساميات الاربع : الاكدية ، والبابلية ، والآشورية ، والكلدانية الآرامية . .

« ان الهجرات المتتالية التي انبعثت من جزيرة العرب كانت من اهم العوامل في تقدم الكيان الحضارى في الشرق الادنى والسير به نحو التطور في مختلف الميادين الزراعية والتجارية ، والسياسية ، والعسكرية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والدينية . ذلك الكيان الذى انبعثت منه اقدم الامبراطوريات واعظمها فيما عرغه التاريخ . .

« فالجزيرة العربية اذن هى بحق مهد الحضارات السامية العربية ، فقد قذفت بأبنائها الاشداء الى ماوراء الصحارى . . خفيى والحالة هذه الينبوع الذى انبثقت منه جميع الحضارات العربية السامية في الهلال الخصيب . . » وكانت مستوطنات شعب الجزيرة في عالمه الجديد تؤلف عالما عربيا واحدا يتميز بقوميته العربية تعززه وحدة جغرافية واحدة مترابطة الاجزاء تضم الجزيرة العربية « الام » وانباءها في بلاد المهجر . .

« لقد كان هؤلاء العرب بناء اعظم واقدم امبراطورية

سامية عرفها التاريخ . وهى الامبراطورية الاكدية التى
أسسها « سرجون » فى القرن الرابع والعشرين قبل
الميلاد والى سميت بالاكديّة نسبة الى عاصمتها « أكد »
« وعندما استقرت الحضارة السامية فى العراق ازدهرت
فيه سلسلة متواصلة من الممالك العظيمة لعبت دورا
رئيسيا وهاما فى تقدم الحضارة الانسانية . .

« ولقد بقيت الحضارة العربية فترة من الزمن بين الم
والجزر كونت فى خلالها دولا عربية كدولة الفساسنة فى
سورية ، والمناذرة فى العراق ، ودولة الأنباط والتدمريين
وغريها من الامارات العربية كإمارة كندة ، وإمارة الحضر
وإمارة الرها ، وإمارة حمص وغيرها حتى ظهر الاسلام
فانبعثت به الحضارة العربية على مستوى أوسع وأعم ،
وعادت فانبعثت من منبعها الاصلى (جزيرة العرب)
واسست دولة عظمى غاقت جميع الدول التى سبقها
بحيث شملت القارات الثلاث (آسيا وافريقيا وأوربا)
.. وقد حاولت أوربا المسيحية قهر الحضارة العربية
الاسلامية وإبادتها ولكنها فشلت بعد محاولة استمرت
حوالى مائة وخمسين عاما » .

ويختتم المؤلف بحثه هذا بكلمة « جورج سارتون » الذى يقول :
« سبق للعرب أن قادوا العالم فى مرحلتين طويلتين من
التقدم الانسانى طوال الفى سنة على الاقل قبل ايام
اليونان ثم فى العصور الوسطى أربعة قرون تقريبا

وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من ان تقود العالم
ثانية في المستقبل القريب أو البعيد .

* * *

اذن كان هناك ممالك عربية وحكومات عربية وحضارة عربية
ايام كانت « اوربا » وما حولها مغارات وكهونا ، وظلاما في ظلام .
واذن ، غالبية التي نزل عليها الاسلام كانت ذات ماض عريق
وتجربة عريقة وممارسة طويلة الامد مع الحكم والحكومات .
ونحن نعلم ان الاسلام جاء ليحدث تغييرا وتصعيدا . تغييرا
للباطل ، وتصعيدا وتعليق لكل ما هو ضرورى وحق .
ولم يكن العرب في عصور الجاهلية الموهلة في البعد ، بقادريين
على ما يعجز عنه أسلافهم في ظل الاسلام بكل قوته وعظمته ورشده .
وحتى مكة — غيبا بعد — والتي لم تكن فيها حكومة ، نجدها قد
قامت بتوزيع مسئوليات الحكومة على قبائلها وبيوتاتها وأغذاذ رجالها
فكانت قوى المجتمع هى التي تحكم وتقود في تنظيم ناضج وسديد .
والمدينة كانت قبل ذهاب الاسلام انيها تنهيا لتتويج ملك عليها
واذا قام الملك قامت حوله الحكومة على نحو ما .

وهكذا لم يكن الاسلام يعمل في خواء ولا يبدا من فراغ حين
يدعو أتباعه لتأسيس حكومة ، بل وحين يبدأ بالفعل في تأسيس دولة
وقف على رأسها امام المتقين وخاتم المرسلين وخير خلق الله أجمعين .

- ٣ -

وعندما توجد « أمة » تؤلف بينها وحدة اللغة والجنس والدين . .
وتوجد الأرض أو « الوطن » الذى تقطنه هذه الأمة . . . ثم توجد
« سلطة عليا » تنظم شؤون هذه الجماعة ، فقد وجدت الدولة . .

ولقد توغر هذا كله للأمة المسلمة بعد أن استقر ميثاق المسلمين
فى المدينة . فقد كان هناك « أمة » هى أمة الاسلام . وكان هناك وطن
وعاصمة لهذه الأمة ، هى « المدينة » . . وكان هناك سلطة عليا تتمثل
فى الرسول صلى الله عليه وسلم بما يوحى اليه من ربه وبما تتمخض
عنه مشوراته الدائمة مع أصحابه حول كل القضايا والمواقف التى لم
يات الوحى فيها ببيان .

وهذه حقيقة لا تقبل الممارسة .

يقول المستشرق « هاملتون جب » :

« بعد الهجرة قام فى المدينة مجتمع قائم بذاته منظم على
قواعد سياسية تحت قيادة رئيس واحد .
« وقد كانت فكرة الرسول الثابتة عن هذا المجتمع الدينى
الجديد الذى أقامه ، أنه سينظم تنظيميا سياسيا . ولن
يكون هيئة دينية منفصلة ومندرجة تحت حكومة
زمنية » (١)

(١) نقلا عن كتاب :

النظريات السياسية فى الاسلام للدكتور ضياء الدين الرئيس .

ويقول المرحوم الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس (٢) :

« لم يكن هناك أية وظيفة من الوظائف التي يمكن أن يقال عنها أنها سياسية — من اعداد الاداة لتنفيذ العدالة ، أو تنظيم الدفاع ، أو بث للتعليم ، أو جباية للمال ، أو عقد معاهدات ، أو انفاذ سفارات الا كانت هذه الدولة تؤذيها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فالمجتمع المسلم في المدينة اذن كان له دولة يقودها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . دولة لها جيش ، وراية ، وقوانين ، وضرائب ، وكل مقومات الدولة الحديثة . واتسع نطاق هذه الدولة ، وقام صرحها العظيم في عهد الخلفاء الراشدين . ثم فيها تلاه من عصور وعهود .

ولعلنا لا نجد دينا ، ولا نظرية تتطلب طبيعتهما قيام الدولة كما نجد ذلك في الاسلام .

فالاسلام دين نظام ، ليس في نطاق المعاملات وحسب . بل وفي نطاق العبادات . . فالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، كلها تؤدي وفق نظام حازم وحكيم .

وهو لا يعنى بتنظيم الحياة في نطاقها الواسع فحسب ، بل وفي أضيق نطاق .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم معلما أصحابه وأمته :

« اذا كنتم ثلاثة في سفر ، فأمرُوا أحَدكم » .

(٢) نفس المرجع السابق .

أى ، فليختر الثلاثة من بينهم واحداً يكون عليهم « امرا » ينظم
مسعاهم ومسرهم .

فكيف نتوقع من دين يعنى بالامارة بين ثلاثة الا يعنى بها بالنسبة
لمجتمع كبير وامة عريضة . . ؟!

ولقد كان اصحاب الرسول رضوان الله عليهم على وعى كامل
بهذه الحقيقة ولهذا وجدناهم يتجه اهتمامهم بعد موت الرسول مباشرة
الى اختيار الخليفة ، حتى قبل تجهيز الرسول ودفنه !!

* * *

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك ان بناء « دولة
الاسلام » واستمرارها جزء من مهمته كنبى ورسول .

بل لعله كان يرى ذلك جزءا من مهام الانبياء والمرسلين ايضا . .
فعليه تنزلت الآية الكريمة التى خاطب الله بها نبيه داود عليه السلام :
« يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس
بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

فالله سبحانه يخاطب « داود » نبيه بأنه خليفة فى الارض
يسوس امور قومه ، وينشر العدل ، ويحكم بين الناس بالحق . .
أفلا يكون « محمد » عليه السلام كذلك نبي دعوة ، وقائد دولة وامة ؟
والاسلام باعتباره « خاتم » الاديان ، و « صفوة » الشرائع ،
لا يمكن ان يحقق ذاته الا بأرساء قواعد الدولة التى تحقق اهداف هذا
الدين الخاتم .

ومادام المجتمع البشرى بطبيعة تكوينه في حاجة الى دولة او دول تنظم سلوكه وحياته ، فكيف يغفل الاسلام عن تلبية هذه الحاجة الملحة والضرورية . . ؟؟

بل ان الكتب التي ارسلها الرسول الكريم في السنة السادسة للهجرة الى نفر من اباطرة العالم يومئذ وحكامه ، وعلى رأسهم « هرقل » امپراطور الروم ، و « كسرى » فارس ، و « النجاشي » امپراطور الحبشة ، و « المقوقس » حاكم مصر وغيرهم .

نقول ان هذه الخطوة من جانب الرسول كان لها مغزاها السياسي بعد مغزاها الديني .

انها تدعوهم الى عبادة الله وتوحيده والدخول في دينه الخاتم ، ولكن ، لعلها بعد هذا تشير الى ما كان الرسول عليه السلام يعلقه على الاسلام من اهل في اقامة « حكومة عالمية » تقوم على منهج الدين وقيمه ومبادئه لا سيما بعد أن كشف الله له حجب الغيب يوم الخندق فرأى الاسلام يضيء بصرى والشام والعراق وفارس والروم . . !!

لقد كانت هذه الرؤية لا الرؤيا . التي وقعت يقظة لا مناما حين كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع اصحابه في حفر الخندق فاعترضتهم صخرة عاتية ، فتعرض لها الرسول بجموله وحين انصدع جبروتها وطار شررها كبر الرسول ربه وحمده بصوت جهير ، فقد رأى نورا يغمر جنبات الارض ، والثى في روعه انه نور الاسلام سيضيء البلاد ويهدي العباد .

كانت هذه الواقعة في غزوة الخندق في السنة الخامسة من

الهجرة وكانت كتابته للباطرة والملوك بعد ذلك بقليل في المسنة السادسة للهجرة .. افلا نلمح علاقة بين الموقفين ؟

انه مادام الرسول كان رسول الله للعالمين ، وكان دينه شرعا للعالمين . فلماذا لا تكون النظم التي ارساها هذا النبي وهذا الدين منهجا للعالمين سواء كانت نظما سياسية أم اجتماعية ؟

لماذا لا يطمح الاسلام الى « حكومة عالمية » تلتف حول مبادئه وكتابه .. ؟

لقد تحققت نبوءة الرسول التي تنبأ بها يوم الخندق .. وخلال خمسة وعشرين عاما دانت الجزيرة العربية كلها للاسلام وبخل تحت مظلة دولته الكبرى معظم بلاد وتخوم الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ثم توالى الفتح بعد ذلك حتى صارت القوة والزعامة الاسلامية طوال مائتي سنة هي القوة الاولى في العالم كله .

اجل — بين عامي ٦٥٠ ، ٨٥٠ ميلادية كانت الدولة الاسلامية اقوى واعظم دولة في العالم .

وفي اقل من ثمانين عاما شملت الفتوحات الاسلامية من الارض والبلاد أكثر من تلك التي ضمتها روما في ثمانمائة عام . . . !

ولم تكن فتوحات الاسلام غاشمة ولا ظالمة ، بل كانت رحمة وهداية وسلاما .. كانت حروب تحرير وتمدين . وليس أدل على ذلك من انه بعد تفكك الدولة الاسلامية ظل المسلمون قادة الفكر والعلم في العالم لمدة خمسة قرون .

كما انها لم تكن فتوحات عنصرية ، فان الكثيرين من ابناء الدول المفتوحة كانوا يصلون الى أعلى مناصب الدولة . وعندما ترك المسلمون اسبانيا — مثلا — لم يتركوها مهلهلة منهوبة . بل تركوها امبراطورية عظمى بفضل ما كانوا قد اسدوا اليها من حضارة وعمران وثقافة ..

اوكل ذلك ، ثم نقول : الاسلام دين لا دولة .. !؟ اذن لماذا كان كل هذا الفتح العظيم والطود الشامخ ؟؟

— ٤ —

لقد كانت تصرفات الرسول توهى الى رجل ينشر دعوة ويبنى دولة فهو يشكل الجيوش ويجعل عليها امراءها ، وهو يعقد المعاهدات ، ويرسل السفارات ، ويجمع الضرائب — زكاة وجزية — وحين يغادر المدينة عاصمة الدين والدولة يختار امرا يخلفه فيها ويقوم اداريا وسياسيا ودينيا بكل مهام الرسول عليه السلام . ولقد قام الرسول في المدينة بكل مسؤوليات النبی والحاكم ، واستمر ذلك من بعده بدءا من يوم السقيفة ..

من اجل هذا ، اجمع المسلمون — اهل السنة ، والمعتزلة ، والشيعة ، والمرجئة ، والخوارج الا قلة ضئيلة عرغت باسم « النجداث » اجمعوا جميعا على وجوب نصب « الامام » اى قيسام « الدولة » التى ترعى شئون الاسلام والمسلمين .

والاسلام وان يكن دينا شرعه الله سبحانه الا انه فى تطبيقاته الانسانية يمثل « عقدا اجتماعيا » يتضمن قيام سلطة تفى بالتزامات هذا العقد ، وتسهر على تنفيذه .

والمبادئ والتنظيمات التي تلبي كل احتياجات الناس ، والتي
انراها « الفقه الاسلامي » وتفسح في تبيانها تتطلب شرعا وعقلا
وبداهة قيام « سلطة » تؤمن بهذا التراث وتلتزم باحترامه وتنفيذه .

والاسلام يقيس نوع السلطة بنوع قيمه ومبادئه ، فهو لا يقبل
أى سلطة تفرضها ظروف مجافية لمبادئه . بل لابد ان يتوفر لهذه
السلطة من العدل واحترام الشريعة ما يجعلها جديرة بكونها سلطة
اسلامية .

من اجل هذا عرف الفقهاء المسلمون رئيس الدولة المسلمة بأنه
« يقوم بأمر الحرب والسلم ، وتدبير الجيوش والسرائيا وسد الثغور ،
وحماية الامة ، والاخذ من ظالمها لظلمها ، والقيام بكل مصالحها
ومهامها السياسية » .

ومن اجل هذا اجمع الفقهاء كما اسلفنا على وجوب قيام الدولة
المسلمة .

يقول ابن خلدون :

« ان نصب الامام واجب قد عرف وجوبه في الشرع
باجماع الصحابة والتابعين » .

ويقول حجة الاسلام الفزالي :

« الدين والسلطان توأمان » .

ويقول النسفي في عقائده :

« والمسلمون لابد لهم من امام يقوم بتنفيذ احكامهم ،
واقامة حدودهم ، وسد ثغورهم ، وتجهيز جيوشهم ،

وجمع الزكاة المفروضة عليهم ، وقهر المتلصصة وقطاع الطريق ، واقامة الجمع والاعياد ، وقطع المنازعات القائمة بين العباد .

ويقول الامام الغزالي ايضا مبينا حاجة الدين والدنيا الى الامام اى الدولة :

« ونظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل اليهما الا بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والاقوات والامن ، ولعمري من اصبح آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه ، فكانما حيزت له الدنيا بحذاميرها . »

« فلا ينتظم الدين الا بتحقيق الامن على هذه الضروريات ومن قضى جميع اوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة ، وطلب قوته من وجوه الغلبة ، فتى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتا الى سعادة الآخرة . »
« . . . ان الدنيا والامن على النفس والاموال لا ينتظمان الا بسلطان مطاع . وهذا تشهد له اوقات الفتن . .
فما لم يتدارك الامر بسلطان مطاع لدام الهرج وعم الشعب وشمل القحط ، وهلك الناس وبطلت الصناعات وصار كل من غلب سلب ، ولم يتفرغ أحد للعبادة والعلم ان بقى حيا ، والاكثر يهلكون تحت ظلال السيوف .
ولهذا قيل : الدين اساس والسلطان حارس . وما لا اساس له فهو مهدوم ، وما لا حارس له فضايع » (١) .

(١) كتاب الاقتصاد في الاعتقاد .

وقال الماوردي :

« .. ويجب اقامة امام يكون سلطان الوقت وزعيم الامة ، ليكون الدين محروسا بسلطانه ، والسلطان جاريا على سنن الدين واحكامه » .

وقال الشهرستاني :

« ولابد للكافة من امام ينفذ احكامهم ، ويقيم حدودهم ، ويحفظ بيضتهم ، ويحرس حوزتهم ، ويعبىء جيوشهم ، ويقسم غنائمهم ويتحاكمون اليه في خصوماتهم ، وينصف المظلوم وينتصف من الظالم ، وينصب القضاة والولاة في كل ناحية ، ويبعث القراء والدعاة الى كل طرف » . (١)

وقال الايجي صاحب المواقف :

« انا نعلم علما يقارب الضرورة ان مقصود الشارع فيما شرع من المصاملات والمناكحات والجهاد والحدود والمقاصات واظهار شعار الشرع في الاعياد والجمعات — انها هو مصالح عائدة الى الخلق معاشا ومعادا . وذلك لا ينم الا بامام يكون من قبل الشرع يرجعون اليه فيما يعن لهم » (٢) .

ويقول الجرجاني :

« نصب الامام من اتم مصالح المسلمين ، واعظم مقاصد الدين » .

(١) نهاية الاتقدام في علم الكلام نقلا عن كتاب النظريات السياسية الاسلامية . (٢) المرجع السابق .

ويقول ابن تيمية :

« يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام للدين إلا بها ، فإن بنى آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع بعضهم الى بعض ، ولا بد لهم عند الاجتماع من الحاجة الى رأس . حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم « اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا احدهم » . « ولأن الله اوجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك الا بقوة وامارة . وكذلك سائر ما اوجبه من الجهاد والعدل ، واقامة الحج والجمع والاعياد ، ونصر المظلوم واقامة الحدود . . وكل ملك لا يتم الا بالقوة والامارة . « ولهذا روى « ان سلطان ظل الله في الارض » . . وكان السلف الصالح كالفضيل بن عياض ، واحمد بن حنبل ، وغيرهما يقولون :

« لو كانت لنا دعوة مستجابة لادخرناها للسلطان » . . (١)

- ٥ -

واجماع المسلمين هذا على ضرورة قيام الدولة المسلمة مستمد مما انتظمه القرآن والسنة من آيات وتوجيهات ، ومن نهج الخلفاء الراشدين الذين قال الرسول عنهم :

(١) السياسة الشرعية في اصلاح الراعى والرعية •

« عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من
بعدي . عضوا عليها بالنواجذ » .

كما انه مستمد بعد ذلك من حركة الاسلام خلال التاريخ الطويل
اما عن القرآن ، فالقرآن مملوء بالآيات التي تدعو المسلمين
الى حكم الله .

والفعل — حكم جاءت مشتقاته في القرآن بمعنى « الحكومة » التي
تقضى وتفصل وتقود .. وجاء بمعنى « الحكمة » .. وجاء بمعنى
الاحكام والاعتقان .. وجاء بمعنى الغلبة والاعتدار .. فلا يجوز الخلط
بين هذه المعاني ، ولا يجوز مثلا حمل آيات الحكم على معاني الحكمة
او الاحكام ، او الاعتدار ، لان معنى الحكم فيها واضح ومبين .

فمن آيات « الحكمة » قوله تعالى :

« ويعلمهم الكتاب والحكمة — وما انزل عليكم من
« الكتاب والحكمة — آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة
« وانزل الله عليك الكتاب والحكمة — ادع الى
« سبيل ربك بالحكمة — ذلك ما اوحى اليك ربك
« من الحكمة — ولقد آتينا لقمان الحكمة — واذكرن مايتلى
« في بيوتكن من آيات الله والحكمة — وشددنا ملكه
« وآتيناها الحكمة وغصل الخطاب » .

ومن آيات « الاحكام » والغلبة قوله سبحانه :

« قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم

« الحكيم — فاعلموا أن الله عزيز حكيم — ولو شاء الله
لأعنتكم أن الله عزيز حكيم — هو الذى يصوركم فى
الأرحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم — ثم
« ادعهم يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم —
« وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم — وهو
« القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير — وكلمة الله هى
« العليا والله عزيز حكيم . . »

فى هذه الآيات الكريمة يتحدث القرآن عن الحكمة بمعناها . .
وعن الاحكام بمعناها . . وعن الغلبة والاعتدار بمعنيهما .

اما لفظ الحكم بمعنى القضاء والفصل وبمعنى الحكومة ايضا
فقد ذكره القرآن ستا وسبعين مرة (١) وحسبنا هنا ايراد بعض
الآيات التى تشير بوضوح الى أن الاسلام له دولته التى تحكم بما أنزل
الله والتى تجعل العدل شرعتها ومنهجها .

يقول القرآن العظيم :

« انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق ، لتحكم بين الناس بما
أراك الله . . »

فالقرآن لم ينزل على قلب الرسول ليتعبد به المؤمنون فحسب

(١) المعجم المفهرس للالفاظ القرآن الكريم لطيب الذكر المرحوم
محمد غزاد عبد الباقي .

بل وليكون — أولا — منهجا للحكم يحكم به الرسول أمته المسلمة بما
أراه الله أى بما رسم له فى هذا القرآن من سبيل وما قنن فيه من
قانون .

ويؤكد القرآن هذا الدور لرسول الله قائلا :
« فاحكم بينهم بما أنزل الله — وان احكم بينهم بما أنزل
الله ولا تتبع أهواءهم » ...

ثم يؤكد له ضرورة الالتزام بحكم الله فيقول :
« واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك » ..
وليس هذا الخطاب قاصرا على الرسول صلى الله عليه وسلم،
بل هو دعوة مفتوحة لكل مسلم يلى أمر المسلمين .

يقول الله تعالى :
« ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ، وإذا
حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ..
والامانات هنا لا تعنى تلك الودائع التى يستودعها بعضنا
بعضا فحسب بل تعنى — أولا — مسئولية الحكم التى هى امانة
أثمن الله عليها الحاكمين .

وإذاؤها الى أهلها يعنى العدل فى تنفيذها والقيام بها ، كما
يعنى اشراك الشعب فى هذه المسئولية بكل الوسائل التى تجعل
مشاركته فى الحكم مشاركة فعالة وحقيقية .

والحكم بما أنزل الله وبما شرع لعباده ، وبناء الدولة التى
تلتزم هذا النهج كان من بين وظائف الرسول عليه السلام .

ولم ينزل الله كتابه لئلهو به . بل هو ينقل إلينا حكم الله الذى ارتضاه للناس ، ولا يرضى بغيره بديلا عنه .

يقول سبحانه :

« والله يحكم لا معقب لحكمه » . .

ليس هناك من يفرض رأيه على حكم الله مهما تكن عبقريته وقوته .

ويؤكد العلى الكبير هذا المعنى فى هذه الآيات الكريمة :

« ذلكم حكم الله يحكم بينكم — ان الحكم الا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين — الا له الحكم — ان الحكم الا لله ، أمر الا تعبدوا الا إياه — ان الحكم الا لله عليه توكلت ، وعليه فليتكول المتوكلون » .

ويرفض القرآن ويدحض كل افتيات على حكم الله وكل عدول عنه الى حكم وضعى مريج . فيقول :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون — ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون — ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » . .

ويوبخ القرآن أولئك الذين ينحرفون عن حكم الله الى حكم البشر
« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ! ومن أحسن من الله حكما لقوم يوتنون ؟ ! » .

ويضع حدا غاصلا بين المؤمنين المخبتين الذين أذعنوا لحكم الله

وارتضوا تشريعه وقانونه ، وبين الضالين الذين عموا وصموا عما
أنزل الله من كتاب ..

فيقول عن الاولين :

« انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله
ليحكم بينهم ان يقولوا : سمعنا واطعنا » .

ويقول عن الآخرين :

« واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق
منهم معرضون » .

ويعلم الرسول ان يقول لاولئك المعارضين والمعترضين :

« اغفیر الله ابتغى حكما ، وهو الذى أنزل اليكم الكتاب
مفصلا » .

اجل .. كيف يبتغى المؤمنون حكما غير حكم الله وهو الذى أنزل
اليهم كتابا مفصلا ومحكما وتبيانا لكل شيء ، وارسل اليهم خاتم انبيائه
ورسله يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويدعوه ويدعوهم بقوله :
« وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله » .

ان هذه الآيات التى سلفت ، يكشف القرآن بها عن ان
للاسلام دورا غير هداية الناس ، هو دور الحكم والحاكم الذى
يحمى ذمارهم ، وينظم حياتهم عن طريق دولته التى يجب ان تقوم
وان تبقى مابقى فى الدنيا اسلام .

ودستور هذه الدولة ماثل فى كتاب الله ، وسنة الرسول ،
واجماع الامة ..

واجتماع الامة يتشكل وفق ما فى القرآن والسنة من احكام .
 « يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول
 وأولى الامر منكم . فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله
 والرسول ... »

والقرآن فى الدولة المسلمة هو أبو القوانين فيها . وستحدث
 من هذا الموضوع ان شاء الله عند حديثنا عن شكل الدولة المسلمة
 وكيف تنهض وتنقوم .

أما الآن وقد تلونا الآيات القرآنية التى تعلمنا أنه لابد للإسلام
 من امام يحكم ودولة تقوم ، فلفتج صوب السنة النبوية لنطالع رايها
 فى هذه القضية .

- ٦ -

ونحن حين نطالع آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول
 الخاصة بقيام الدولة فى الاسلام ، لا نلتقى بآية ولا بحديث يقول :
 يا ايها الذين آمنوا أقيموا دولة أو اتخذوا منكم اماما وحاكما ، تماما
 كما لا نلتقى بآية تقول أو بحديث يقول : يا ايها الذين آمنوا تنشقوا
 الهواء ... !! ذلك أن القضية من البداهة بحيث لا تتطلب امرا بها
 ودعوة إليها إنما يتجه القرآن وتتجه الاحاديث النبوية مباشرة الى
 الحديث عن شكل هذه الدولة ومقاييسها وأخلاقياتها وعن
 المسؤوليات المتبادلة بينها وبين الامة .

ان قيام دولة فى أى امة امر بدهى تتطلبه طبائع الاشياء
 وتقتضيه سنن الاجتماع البشرى .

وهذا ما أدركه الامام على بفطرته وذكائه حين قال :

« لابد للناس من امارة — برة كانت أو غاجرة .. »

« قيل : يا أمير المؤمنين ، هذه البرة قد عرفناها ، فما بال
الغاجرة .. ؟؟ »

« قال : يقام بها الحدود .. وتؤمن بها السبل ..
ويجاهد بها العدو .. ويقسم بها الفئء .. »

فقيام الدولة ايا كان لونها أمر ضروري بقدر ما هو بديهي .

وانما كان اهتمام القرآن والسنة بالنهج الذي تقوم عليه الدولة
في الاسلام — أى بميزات وخصائص وسمات الدولة المسلمة . فاذا
قال القرآن للرسول « احكم بينهم » فانه يتبعها بقوله « بما انزل الله »
.. واذا قال له « لتحكم بين الناس » اتبعها بقوله : « بما اراك الله »

ومعنى هذا ان الاسلام يثشد نوعا معينا من الدول والحكومات .
هو الذى يلتزم بتعاليمه ومبادئه وتقاليده .

وتعالج احاديث الرسول الاكرم الموضوع بشمول ووضوح .
ولنبدا بهذا الحديث العجيب .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من مات وليس له امام ، مات ميتة جاهلية » .

والمراد بالامام فى الاسلام اذا اطلق ، « الحاكم » أى « الدولة »
غاي توكيد لدورها ، بل أى تقديس أكثر من هذا الذى نرى !؟

لا يحق لاي انسان رشيد أن يعيش فى الفلاة كالحر الوحشية

ليس له مجتمع يؤويه ولا دولة تحميه . . ومهما يبالغ المسلم في الفرار
بدينه من الفتن ، غلابد أن يكون له انتماء يربطه بأتمته ودولته . والا
عاش أبنا ، ومات — كما قال الرسول — ميتة جاهلية .

أن الدين الذى يقول رسوله هذا الحديث لا يمكن أن يتجاهل
قيام الدولة . بل لابد أن تكون الدولة أصلا من أصوله الراسخات .

ثم لنطالع هذا الحديث للرسول عليه السلام :

« كانت بنو اسرائيل تسوسهم الانبياء عليهم السلام .
كلما هلك نبى خلفه نبى . . وانه لا نبى بعدى . وسيكون
بعدى خلفاء فيكثرون . .

« قال أصحاب الرسول : فما تأمرنا ؟؟

« قال : أوفوا ببيعة الاول . . . »

فهنا يحفظ الرسول الدولة المسلمة من الانشقاق والتصدع ،
ويبين انها ثمرة « النبعة » و « الشورى » بدليل قوله عليه السلام
« أوفوا ببيعة الاول » .

ولكانما كان الرسول يقرأ ويطلع مستقبل الدولة المسلمة ،
وما مستعرض له من فتن واختناقات . بل لقد طالع هذا المستقبل
فعلا حين قال :

« الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك » .

يقول الصحابى راوى الحديث « لقد حسبنا خلافة أبى بكر ،
وخلافة عمر ، وخلافة عثمان ، وخلافة على فوجدناها ثلاثين سنة » .

ويأمر الرسول باحترام بيعة الامة للخليفة الذى تختاره بكامل
مشيئتها ويدعو الى رفض من نازعه الامر بغير حق وسلطان ويحكم
بتجريمه بل بقتله . . يقول عليه السلام :

« من اتاكم وامركم جميع على رجل واحد يريد ان يشق
عصاكم او يفرق جماعتكم ، فاقتلوه » !!

ومرة اخرى نلفت النظر الى قوله عليه السلام « وامركم جميع »
اي ان الامام القائم ثرة اجماع من الامة على تنصيبه واختياره .
وتقوم الدولة بكل مسؤولياتها تجاه الامة .

يقول عليه السلام :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالامام راع
ومسئول عن رعيته . . . »

والحاكم المسام يكرس حياته لخدمة الامة واصلاح حالها وامرها
وهو لهذا لا يغيب قط عن قضاياها ومشكلاتها . . بل لا يغيب عن
حاجة اى فرد من افرادها .

يقول عليه السلام :

« من رلاه الله شيئا من امور المسلمين ، فاحتجب دون
حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله تعالى دون حاجته
وخلته وفقره يوم القيامة » . .

والحاكم عادل ومقسط .

« ان المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور
عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين — الذين يعدلون في
حكمهم واهليهم وماولوا »

والدولة المسلمة لا تخدع الامة ولا تغشها ولا تعاملها بظاهر
جميل يخفى باطنا قبيحا .

يقول عليه السلام :

« ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو
غاشٍ لرعيته الا حرم الله عليه الجنة » .

والحاكم المسلم وجميع ولاته على الاقاليم مسئولون امام الله ثم
امام الناس عن سلوكهم ، وعن مدى التزامهم بتعاليم الاسلام الحنيف
والحاكم مسئول عن ولاته الذين يجب أن يختارهم وفق رأى
الاسلام فيهم ، لا وفق هواه .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من
هو اصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله
والمؤمنين » .

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مؤكدا معنى الحديث :
« من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة او قرابة
بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمسلمين » .

يقول الامام ابن تيمية (١)

« ويجب على كل من ولى شيئا من أمر المسلمين ان
يستعمل فيما تحت يده في كل موضع اصلح من يقدر

(١) السياسة الشرعية في اصلاح الراعى والرعية .

عليه . ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية ، بل يكون ذلك سبب المنع .

« فان عدل عن الاحق الاصلح الى غيره ، لاجل قرابة بينهما أو صداقة أو موافقة في بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية ، أو لرشوة يأخذها منه ، أو غير ذلك من الاسباب ، أو لضغن في قلبه على الاحق والاصلح ، أو عداوة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ، ودخل فيما نهى الله عنه بقوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول. وتخونوا اماناتكم وأنتم تعلمون .

« . . ان الوالى الذى يؤدى الامانة مع مخالفة هواه يثبته الله ويحفظه في أهله وماله بعده . . والمطيع هواه يعاقبه الله بنقيض قصده ، فيذل أهله ويذهب ماله .

« . . قال بعض الناس لامير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: يا امير المؤمنين اغفرت (افقرت) افواه بنيك من هذا المال وتركتمهم فقراء لا شئ لهم ، وكان في مرض موته . فقال : ادخلوهم على ، فادخلوهم فلما رأهم ذرفت عيناه ثم قال : يا بنى ، والله ما منعكم حقا هو لكم وما كنت لأخذ أموال الامة فأدفعها اليكم . . وانما أنتم أحد رجلين « اما صالح ، فאלله يقولى الصالحين . . واما غير صالح فلا أخلف لكم ما تستعينون به على معصية الله . .

ثم يقول ابن تيمية رضى الله عنه :

« فبارك الله له في ولده وأغناهم حتى ان أحدهم تبرع في

احدى الغزوات مع الروم بمائة فرس للمجاهدين .
» حدث هذا من عمر بن عبد العزيز وهو خليفة المسلمين
من أقصى المشرق ببلاد الترك الى أقصى المغرب بالاندلس
.. ومن جزيرة قبرص وثغور الشام الى أقصى اليمن ..
ولقد كان نصيب كل من أبنائه من تركته وميراثه أقل من
عشرين درهما .

بينما كان هناك أحد الخلفاء ، اقتسم بنوه تركته فكان
نصيب كل فرد منهم ستمائة ألف دينار .. ومع ذلك فقد
كان بعض هؤلاء الابناء يتكفون الناس بعد ما أصابهم
من فقر وفاقة « ...

أجل — الحاكم وولاته مسئولون عن الامة ثبات وجهيها ..
والامانة والتعفف هما مقياس صلاحية الحاكم والولة . والذين
تصلهم بأموال الناس وظيفة ومنصب فان مسئوليتهم عن الامانة تفوق
كل تقدير ..

ان الذى يرى الرسول وهويواجه خيانة من مال الشعب أوسفها
فى انفاقه ليرى أمرا عجبا .

فهذا الرسول الرحيم العظيم الذى طالما التمس المعذرة ورجا
رحمة الله للخطائين يتفأ أمام الخيانة أو التجوز فى مال الامة وكأنه
لا حيلة له أبدا . ولأول مرة نراه يستحى أن يسأل ربه المغفرة لأثم .
فلك لان الأثم هذه المرة خائن ، خان مال الامة وهو عند الله اثم مبين .
اهدى رفاعة بن زيد للرسول عليه السلام خادما .. وفى غزوة

وادی القرى أصابه سهم وهو ينزل رحل الرسول ، فأقبل الصحابة على الرسول يعزونه ، ويقولون : هنيئا له يا رسول الله غقد مضى شهيدا فأجابهم الرسول قائلا :

« وما يدريكم . . ؟ ان الشملة التي أخذها من المغنم يوم خيبر ، لتشتعل عليه نارا » . . . !!

شملة . . شمله تساوى درهما أو بضعة دراهم يطارد اثمها أخذها حتى وان مات شهيدا .

الا انه لولاء للامانة ليس له نظير . . !!

ان كل قرش يناله وال أو موظف أو حاكم خلصة أو جهرة دون ان يكون له فيه حق لهو غلول وخيانة .

يقول الرسول عليه السلام :

« من استعملناه على عمل ، فرزقناه رزقا ، فما اخذ بعد ذلك فهو غلول » .

ان العلاقة بين الوالى والامانة تبلغ في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام مبلغا عظيما من التقديس . . فهو — مثلا — يرفض رفضا مطلقا ان يقبل الوالى أو الموظف هدية — مهما تكن — جزاء عمل اداه يدخل في نطاق واجبات ولايته ووظيفته . ان هذا يفتح بابا خلفيا للخيانة والتفريط في الحقوق العامة .

وقف عليه السلام خطيبا ذات يوم وقال :

« اما بعد ، غانى استعمل الرجل منكم على عمل مما ولانى الله .

« غيأتي ويقول : هذا لكم ، وهذا أهدي الى ..
هلا جلس في بيت أبيه حتى تأتيه هديته ان كان صادقا ؟
» والله لا يأخذ احد منكم شيئا بغير حقه الا لقي الله
يحملة يوم القيامة .. اللهم قد بلغت « ... !!

ان الرسول ليتحدث عن « امانة الحكم » باهتمام عظيم ، ويلقى
تعاليمه الهادية المضيئة الى الحكام ، والولاة ، والقضاة ، والى كل من
يحمل مسئولية في الدولة .

يقول عليه السلام عن الامارة :
« انها امانة ، وانها يوم القيامة خزى وندامة ، الا من
أخذها بحقها ، وادى الذى عليه فيها » .

ولان الحكم « امانة » ومسئولية عظمى لا يتهالك عليها الا جاهل
بفداحتها ، ولقد كان الرسول عليه السلام يرفض ان يولى احدا ولاية
أو امارة يسألها ويرتو اليها .

ذهب أحد أصحابه يوما يسأله ان يوليه احدى الولايات ، فقال :
« انا والله لا نولى هذا الامر احدا يسأله أو احدا يحرص
عليه » .. !!

ويوصى عبد الرحمن بن سمرة قائلا :
« يا عبد الرحمن ، لا تسأل الامارة ، فانك ان سألتها
وكلت اليها .. وان أعطيتها بغير مسئلة أعنت عليها » (١)

(١) راجع كتابنا — كما تحدث الرسول .

قد يكون رفض الحكم أمرا ميسورا للرجل الورع ، لكن الصعب بالنسبة اليه هو تقلد الحكم ، وتحمل مسئولياته الشداد .

ومن المريح لك أن تضع عن كاهلك الحمل الثقيل الذي يؤود الأشداء من الرجال ، ولكن الصعب جدا أن تحمله وتمضى به السنوات الطوال . .

لذلك لا نجد المتهافتين على السلطة الا من بين النهمين لشهوات الدنيا من منصب ومال وجاه والفرغين عقولا وأفئدة .

ولعل خير تعبير عن هذه الحقيقة يتمثل في قول الامام على كرم الله وجهه :

« أما والذي غلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لولا ما اخذ الله على العلماء الا يقاروا على كظة ظالم ، وسغب مظلوم ، لألقيت حبلا على غاربها ، وسقيت آخرها بكأس أولها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفة عز » . . !!

وكان يوما يخصف نعله ومعه ابن عمه عبد الله بن العباس ، فسأله الامام على :

— ما قيمة هذه النعل ؟؟

قال ابن عباس : لا قيمة لها . .

قال الامام : والله لهى احب الى من امرتك ، الا ان اقيم حقا ، او ادفع باطلا . . !!

* * *

واختيار الدولة لولايتها يجب ان يتم وفق مقاييس الاسلام .
المتثلة في ان يكون الوالى كفؤا وعدلا وصادقا وامينا . . ولاية ينصحون
الدولة ولا يغشونها ، يواجهون الحاكم ولا يتلقونه . يخلصون للحق
ويجعلون ولائهم له من دون الناس .

يقول الرسول عليه السلام :

« اذا اراد الله بالامير خيرا جعل له وزير صدق : ان
نسى ذكره . . وان ذكر اعانه . .

« واذا اراد به غير ذلك ، جعل له وزير سوء : ان نسى
لم يذكره . . وان ذكر لم يعنه » .

اذن فاختيار الولاية الاكفاء من صالح الحاكم قبل ان يكون من
صالح الامة ، والحاكم الذكى ، ، والوالى الذكى ايضا هو الذى لا يبيع
دينه بدينه غيره . .

ان الدولة تقف بكل مؤسساتها على الهوة الفاغرة والمنزلق
الوعر اذا هى اسندت امورها لغير الاكفاء والامناء . . واذا هى آثرت
المفائيق والجبناء .

واذا كان اختيار الولاية الصالحين واجب الحاكم ، فان اختيار
الحاكم الصالح واجب الامة .

وهذا ينقلنا الى الحديث عن شكل الدولة المسماة وكيف تتشكل
وتقوم .

* * *

- ٧ -

إذا القينا نظرة على المعالم حوالينا الفينا الدولة في كل بلد انعكاسا للمبادئ والنظريات السياسية التي يمارسها ذلك البلد . .
وتتحكم الأوضاع الاقتصادية الى حد كبير في تشكيل نوعية الدولة ،
ورسم خصائصها .

والدولة المسلمة لا تخرج عن هذه القاعدة . فهي انعكاس
لمبادئ الاسلام وقواعده وخصائصه .

وإول ما يواجهنا ونحن نتحرى هذه الخصائص والمبادئ ، مبدأ
الشورى . .

فالإسلام دين الشورى بكل ما تحمله الكلمة من معنى وشمول .
وبإتالي فإن شكل الدولة الثائمة باسمه المستظلة برأيه لابد أن
يكون « شوريا » وقد تنزل القرآن على الرسول يأمره أمرا واضحا
وواجبا أن يدبر أمور أمته عن طريق الشورى فيما لم يأت القرآن فيه
بحكم صريح .

قال الله سبحانه وتعالى لنبيه :

« غيبا رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت غظا غليظ القلب
لا نفضوا من حولك . شاعف عنهم ، واستغفر لهم ،
وشاورهم في الأمر . . فإذا عزمت فتوكل على الله » .

ويلفت الامام الرازي أنظارنا الى معنى رائع تعطيه هذه الآية-
الكريمة . ذلك أنها نزلت في أعقاب « غزوة احد » تلك الغزوة التي لم
يكن النبي يرى فيها الخروج من المدينة لملاقاة قريش خارجها . بيد-

أن الاغلبية من أصحابه رأوا غير ما رأى ، فنزل النبي على رأيهم .
وخرج على رأس جيشه لملاقاة جيش الشرك ودارت الحرب عند جبل
أحد . وحدث فيها ما حدث للمسلمين من محن شداد .

في اعتاب هذا الذي حدث نزلت الآية الكريمة تقول للنبي عليه
السلام :

« وشاورهم في الامر » .

أى لا تجعل ما ظهر من خطأ رأيهم سبباً لتجنبك الشورى ، فإن
الخطأ مع الشورى أسلم من الصواب مع التفرد بالرأى . . . !!

وهذا الموقف بين الله ورسوله لا غرابة فيه ولا عجب ، مادام
الرسول إنما بعث ليعلم الناس ويهديهم سواء السبيل . . ان سواء
السبيل هنا وفي هذا المجال هى الشورى التى لا تعرف الملل ولا
الاستعلاء .

أجل . . نزل الوحي عليه بعد ما حدث له ولعمه حمزة ولأصحابه
بسبب الشورى ما حدث . نزل ليأمره بالمزيد من الشورى . . . !!

ولقد حذق الرسول الكريم الدرس الذى لقننه الوحي إياه ،
فعاث يقدس الشورى فى كل امر ، ويرسخ ذلك فى روع أصحابه .

فيقول لهم :

« ما تشاور قوم قط الا هدوا لأرشد أمرهم » .

ويصفه صاحبه أبو هريرة رضى الله عنه فيقول :

« لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولقد مضى سلوك الرسول على هذا النهج من الاهتمام بالشورى واخضاع كل قراراته لها حتى في أشد المواقف وأكثرها حرجا وتجهما ...

ولنضرب لهذا مثلا آخر :

في غزوة « الخندق » وهي تكاد تكون أخطر الغزوات التي واجهها الرسول والمسلمون . اذ أقبلت قريش ومن تبعها من اعراب كنانة وتهامة في عشرة آلاف مقاتل شديدي المراس ومعهم يهود بنى النضير . ومن الداخل كان هناك يهود بنى قريظة نقضوا عهدهم مع رسول الله وانضموا الى الغزاة .

ويكفى في تصوّر هذا الموقف الرهيب أن نستمع لكلمة القرآن فيه :

« اذ جاءكم — أى الاعداء — من فوقكم ، ومن أسفل منكم
« واذا زلزلت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر ،
« وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا
زلزلا شديدا » .. !!

في هذا الموقف الصاعق رأى النبی أن يقلل من عدد مهاجميه وذلك بأن يصرف « غطفان » عن هذه الحرب وعن حلفها مع قريش . وفكر عليه السلام أن يرسل الى قائد غطفان ، ويعرض عايتها ثلث ثمار المدينة وغلقتها على أن ينسحب من الجيش المهاجم ويرجعاً بقومهما

وفي هذا الهول لم ينس الشورى ، فعرض الامر على سادة
الاوس والخزرج في المدينة فأبوا هذا الصلح واعتبروه اذلالا لهم
وهوانا فنزل عليه السلام عند رايهم مسلما امره الى الله ومترقبسا
بركة الشورى . . ولقد كانت مباركة حقا ، فقد هزم اليأس جيش
قريش وحلفائها ، وسخر الله ريحا وعواصف اقتلعت خيامهم وأطفأت
نارهم وكفأت قدورهم وأذهلتهم عن أنفسهم فصاح غيهم «أبو سفيان»
صيحة الفرار والخذلان واليأس وانقلبوا الى مكة صاغرين .

* * *

وكان عليه السلام يقول لأبي بكر وعمر :
« لو ذهبتما لرأى ما خالفكما » .

ليس احتراماً للشورى وحسب . بل ولأن الشيخين أصبحا
بصوتيهما يشكلان أغلبية تجاه الصوت الواحد ، وان يكن صوت
الرسول . . . !!

ولقد جعل الله سبحانه احترام الشورى من ائمن خصال
المؤمنين وصفاتهم . قال تعالى :

« وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا ، وعلى ربهم
يتوكلون . . والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ،
واذا ما غضبوا هم يغفرون . . والذين استجابوا لربهم
واقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم
ينفقون » . .

ولقد أخذ الخلفاء الراشدون بواجب الشورى في حزم ويقين .
ويحدثنا « ابن القيم » نقلا عن التابعى الكبير «ميمون بن مهران»
أنه قال :

« كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب
الله تعالى ، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به . . وإن
لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله صلى الله
عليه وسلم . فإن وجد ما يقضى به قضى به . فإن أعياه
ذلك سأل الناس : هل علمتم أن رسول الله قضى فيه
بقتضاء . غربا قام إليه القوم فيقولون : قضى فيه بكذا ،
وكذا . . فإن لم يجد سنة منها رسول الله جمع رؤساء
الناس فاستشارهم . فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به
« وكان — عمر — يفعل ذلك . . . » (١)

فحكومة أبى بكر وعمر لم تكن كما يتصور البعض حكومة
« مستبد عادل » . . ولقد عرضت لدحض هذا الرأى فى مقدمة كتابى
« وجاء أبو بكر » ، وقلت : ان الذين يرون فى أبى بكر وعمر مستبدين
عادلين انما يجانبون الصواب .

اولا ، لانهما لم يكونا مستبدين ساعة من نهار .

وثانيا ، لانه ليس هناك شيء اسمه « المستبد العادل » .

فالاستبداد والعدل ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يلتقيان . وإن

(١) اعلام الموقعين ج ١ .

أحدهما ليختفى غور ظهور الآخر ، لان أبسط مظاهر العدل ان يأخذ كل ذي حق حقه . . واذا كان من حق الناس — وهذا مقرر بداهة — أن يختاروا حياتهم وحكامهم ، ويقرروا مصايرهم ، فان ذلك يقتضى في نفس اللحظة ولنفس السبب اختفاء الاستبداد .

ولقد كان « أبو بكر ، وعمر » رضى الله عنهما على بصيرة من هذا . وعلى الرغم من أنهما والامة معهما كانا خاضعين خضوعا مطلقا لما أنزل الله من كتاب فقد أتاحا للمسلمين كل فرص المناقشة والمعارضة والاختيار .

ربما يذهب الظن بالبعض الى أن « أبا بكر ، وعمر » لم يكونا حاكمين ديمقراطيين لانه لم يكن بجوارهما تلك المؤسسات الديمقراطية الحديثة من برلمان ودستور ومعارضة وصحافة حرة .

بيد أن وضع المسألة على هذا النحو يشكل خطأ كبيرا . . . وانما يستقيم الفهم اذا نحن أجبنا عن هذا السؤال :

— هل كان غياب هذه المؤسسات الديمقراطية التى عرفها العالم حديثا ، هل كان غيابها عن الدولة المسلمة يومذاك راجعا الى كفران الخليفين بهذه المؤسسات ؟!

والجواب بيقين : لا — وغياب هذه المؤسسات لا يعنى أكثر من كونه تعبيرا عن نظم ذلك العصر البعيد في جزيرة العرب بل وفي معظم بلاد العالم منذ ألف وأربعمائة عام .

لقد حقق الخليفان على أوسع مدى الجوهر الحى للديمقراطية

من خلال ايمانها العميق بكرامة الانسان ، ومن خلال الاشكال والتطبيقات التي كانت تلائم عصرها .

● فإذا كانت الدولة المسلمة في عهديها لم تشهد قيام معارضة برلمانية منظمة نفقدان ذلك في بيئتهما وعصرها ، فإن المعارضة نفسها كانت تمارس بأسلوب فعال وعميم .

● وإذا كانت الدولة يومئذ لم تشهد قيام برلمان يراقب الحاكم ويشرع القوانين ، فإن الشورى يومئذ كانت شعيرة من شعائر الله ، وكانت حقا مقدسا للجماعة كلها .

● وإذا كان التطور يومئذ لم يهيئ قيام صحافة حرة ، فإن الكلمة الصادقة الشجاعة كانت على كل لسان . يصفى الخليفة اليها ، ويثيب عليها .. !!

ولو أن الخليفتين العظيمين « أبا بكر ، وعمر » يحكما في عصرنا هذا لأعطيا التجربة الانسانية في النظام الديمقراطي الرشيد كل احترامهما ، ولانتفعا بها الى أبعد مدى ، ولاخذا من أشكالها الحديثة ما يحقق جوهرها ويعبر عن خصائصها .

صحيح أن ذلك لم يكن سيتم بصورة مطلقة . بل كان سيتم داخل ايمانها المطلق بالدين الذي آمنوا به واتبعوه .. على أنه مع وجود هذا التحفظ لن ينقص ذلك من قدرهما كحكامين ديمقراطيين .

ذلك أن أى حاكم ديمقراطى إنما يعمل داخل حدود الدستور العادل القائم في دولته .

وأبو بكر وعمر كانا يعملان داخل حدود الدستور القائم في تولتهما ..

لقد كان للقرآن في أمتهم من الولاء والاحلال والهيمنة أكثر مما للدساتير في كل دول الدنيا .

ولقد تضمن القرآن العظيم مزيتين من اعظم مزايا الديمقراطية: اولاهما — انه جعل الشورى واجبا مفروضا في دولة الاسلام . وثانيتهما — انه لم يلزم بطاعة احكامه واعتناق مبادئه الا من يقره ويختاره ويؤمن به . . اى بلغة عصرنا الحديث : « من يقترح عليه بالموافقة » !!

اما الآخرون الذين لم يؤمنوا به من اهل الكتاب — يهود ونصارى — فلهم ان يعيشوا وفق عقائدهم ، ويختاروا اسلوب حياتهم .

صحيح أن القرآن « دستور » لم يضعه الشعب ، ولكنه دستور رضيه الشعب ، وآمن به واقتنع عليه ، واستشهد في سبيله فالمسلمون الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وساروا معه آمنوا بأن القرآن وحى من عند الله وعليهم طاعته ، ولم يكرههم احد على الايمان به .

ولقد حمل « الصديق أبو بكر » بعد الرسول مسئولية قيادة الامة وفق هذا الايمان .

ثم حمل « الفاروق عمر » المسئولية بعد أبى بكر وفق هذا الايمان أيضا .

واذن فالمعيار الصحيح الذى يوزن به حكمها وديمقراطيتها هو مدى احترامها لهذا القرآن . . لهذا الدستور ، الذى آمن به المسلمون واختاروه ثانونا ومنهجاً لحياتهم .

* * *

ولقد تحدث الفقهاء طويلاً عن كون الشورى ملزمة أم غير ملزمة أى هل ينتهى دور الشورى عند إبلاغ الخليفة أو الحاكم بها ثم له بعد ذلك أن يأخذها وأن يرفضها . . وبهذا تكون غير ملزمة . . أم أنها ملزمة وواجب على الحاكم الأخذ بها .

وعندى أنها ملزمة ، ثم ملزمة ، ثم ملزمة . . ولو لم تكن كذلك لما كان من ورائها جدوى ولا فائدة . .

لأنه إذا كان المراد من الشورى تقليب وجهات النظر وصولاً إلى الصواب ، فإن فى الوحي غناء عن هذه المحاولة . ولن يعقل أن يتخلف الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موقف خطير كموقف الحرب فى غزوة أحد وغيرها .

وإذا كان الغرض من الشورى مجرد ترضية شكلية للمسلمين فإن فى ذلك إحباطاً وتثبيطاً ، بل وإهانة للشورى وللمستشارين يجلب عنها مقام الرسول .

أذن يتعين أن يكون المراد من الشورى تمكين الأمة من حقها فى أن يكون لها رأى محسوب فى تقرير مصايرها ، ويكون هذا الموقف بين الرسول والمسلمين مقصوداً لتدريب الأمة على يد رسولها وقائدها . . تدريبها على ممارسة حق الشورى الذى هو من أهم وأجل حقوقها .

ثم ان مواقف الرسول وخلفائه من الشورى تدحض الراى
القاتل بعدم الالزام . .

ان الرسول الذى كان معه الوحي يصبحه ويمسيه ، امره الله
وأوجب عليه أن يشاور أصحابه . . ورأينا كيف خضع للشورى فى
أشد المواقف هولا وضراوة .
* * *

ولكن ماذا تعنى « الشورى » بلفظة عصرنا الحديث الذى
نعائشه ولا نستطيع .نه فكاك . وقديما قليل ، ولعله حديث نبوى .
« الناس بزماتهم ، أشبه منهم بآبائهم » .

ما الشكل الذى يجب على الدولة المسلمة أن تكونه وفقا لمبدأ
الشورى ، ومتابعة لروح العصر . . ؟؟

هل يكفى اليوم أن يكتفى الحاكم بمشاورة أهل الحل والعقد ،
والشعب هناك قابع فى مسكنة وضياع كالمقعد الضرير . . ؟!
ومن هم أهل الحل والعقد . . ؟!

ان هذا السؤال يرفض كل تجاهل له ، ويدحض كل جبن عن
مواجهته .

وعندى أن المفهوم الحديث للشورى التى زكاها الاسلام هى :
الديمقراطية البرلمانية . .

ان ينتخب الشعب نوابا عنه يمثلون أرائته ومشيئته ،
ويختارون او يختار الشعب كله معهم الحاكم الذى يرأس الدولة
ويقودها — ويكون هؤلاء النواب حراسا على حقوق الامة لدى الدولة

يؤيدون الحاكم اذا صلح ، ويقاومونه او يعزلونه اذا زاغ وانحرف .
وهؤلاء النواب عندي هم « اهل الحل والعقد » لا سيما اذا
طعم المجلس النيابى فى امة ما ببعض الكفايات المتخصصة ولو
بالتعيين المحدود .

وهذه الديمقراطية تفتح ذراعيها للمعارضة داخل المجلس
وخارجه عن طريق البرلمان والصحافة وكل وسائل الاعلام ، فان
الديمقراطية بلا معارضة تعنى الديمقراطية بلا ديمقراطية . . . !!

وتديما قلت :

« ان افضل علاج لاختفاء الديمقراطية ، هو المزيد من
الديمقراطية » . . .

هذه حقيقة نود للمستتمسكين بالدولة الاسلامية ان يعوها
جيذا . . فلا يقولون احدهم : نظام دولتى الشورى ثم يمضى !! لادمن
ترجمة هذه الكلمة الى منهج سياسى مفصل . .

ولقد اغضى بى البحث الى ان الشورى هى اليوم «الديمقراطية
البرلمانية» ولا تزيد . .

ولن يكون ثمة حرج ولا بأس ان نحن اضعفنا الى تراثنا
السياسى بعض النظم السياسية المعاصرة ، فان مجرد استخدام
الاسلام لها وتدنيرها بجوهر مبادئه سيجعلها اسلامية ، كما اصبحت
بعض الكلمات الاجنبية فى القرآن عربية بمجرد استخدام القرآن لها .
ان الحكم فى الاسلام ليس حكما مطلقا ، ولا تسلطا وقهرا .
ولكنه حكم شورى . حكم ديمقراطى بأصدق معانى هذا التعبير .

وهو في نفس الوقت عقد بين الله والحاكمين ان ينشروا الايمان
ويقيموا العدل ، ويكونوا أمناء على مصالح الناس ومصايرهم .

* * *

وبالتفسير الذى اسلفناه للشورى ندرك في وضوح ان الحاكم
ليس ملاكا يتنزل على الناس من السماء .. انما هو بشر ، ومواطن
يختاره الشعب بكامل حريته ومحض ارادته ليحفظه ويقوده وفق
الدستور والقانون .

ورئيس الدولة في الاسلام ، ليس من يشغل منصبه بالتعيين
ولا بالوراثة ، ولا بالعهد الذى لا تقره الامة وترضاه .

فلك ان الامامة لا تنعقد لاحد الا بالاختيار والاتفاق .

قال علماء الفقه « الامامة عقد » غالبية شرط أساسى لقيام
رئيس الدولة .. اذ العقد يكون دائما بين طرفين ، والطرف الاول
لعقد الامامة هو الامة (١) .

يقول البغدادى في كتابه « اصول الدين » :

« قال الجمهور الاعظم من أهل السنة ومن المعتزلة ومن
الخوارج ان طريق ثبوت الامامة هو الاختيار من الامة » .

ولهذا نجد أن الامام عندما يريد ترك الامامة غليظ ثمة من يملك
حق اعفائه سوى الامة ، وهذا يدل على أنها هى التى تملك حق
توليته — هذه نظرية الاسلام .

(١) النظريات السياسية الاسلامية .

فالإمامة أو الخلافة هي حق الأمة ، والأمة في الإسلام هي مصدر السلطات .. وهي مجموعها أو عن طريق نوابها المنتخبين منها التي تختار رئيس الدولة الذي لن يكون أكثر من وكيل للأمة يصرف أمورها وشئونها .

وقد يبدأ اختيار الإمام من أهل عاصمة البلاد التي سيحكمها ، ولكن ذلك لا يكفي ، بل يتبعهبيعة الأمة كلها بنفسها أو بنوابها .

يقول الماوردي (١) :

« وليس لن كان في بلد الإمام على غيره من أهل البلاد فضل مزية .. وإنما صار من يحضر ببلد الإمام متوليا لعقد الإمامة عرفا لا شرعا لسبق علمهم بموته ، ولأن من يصلحون للخلافة في الأغلب موجودون في بلده » .

ويقول أيضا :

« ان عقد الإمامة عقد مرضاة واختيار ، لا يداخله اكراه ولا اجبار » .

وهناك تعريف رائع للإمام قاله الإمام « أحمد بن حنبل » عندما سئل عن معنى قول الرسول عليه السلام : من مات وليس له امام مات ميتة جاهلية — فقال أحمد :

« أتدري من الامام؟؟

« الامام هو الذي يجمع عليه المسلمون . كلهم يقول : هذا امام » ..

(١) الاحكام السلطانية .

ولابد لتوضيح هذا الامر من الرجوع الى عهد الخلفاء الراشدين لتوضح بعض ما عساه ان يبهم علينا .

فالخليفة الاول « أبو بكر الصديق » رضى الله عنه تم اختياره لا تعيينه . اذ لم يعهد الرسول لاحد بالخلافة من بعده — وفي هذا اشارة واضحة الى أنه عليه السلام احتفظ للامة بحقها في الاختيار .

تمت الخلافة لابی بكر بالبيعة من بعض المسلمين يوم السقيفة ومن بقيتهم في اليوم الثاني ، ثم توالى البيعة من الأتقاء . . صحيح أن « عمر بن الخطاب » هو الذى بدأ بالبيعة وصمم عليها . ولكن ذلك لا يعنى انها كانت بيعة فرد بل كانت بيعة أمة . بيعة المهاجرين والانصار الذين كانوا قد بايعوا الرسول من قبل وآزروه ونصروه . يقول ابن تيمية في كتابه « منهاج السنة » .

« لو أن سر وطائفة معه بايعوا أبا بكر ، وامتنع سائر الصحابة عن البيعة لم يصر أبو بكر اماماً بذلك — وانما صار اماماً بمبايعة جمهور الصحابة الذين هم أهل القدرة والشوكة » . .

وكذلك يقول الامام الغزالي : (١)

«للم يبايع أبا بكر غير عمر، وبقي كافة المسلمين مخالفين او انقسموا انقساماً متكافئاً لا يتميز فيه غالب عن مغلوب لما انعقدت الامامة » .

(١) الرد على الباطنية — نقلاً عن النظريات السياسية الاسلامية .

وأمر المؤمنين « عمر » نفسه يدرك ذلك ويحض الأمة على أن تحتفظ بحقها في الاختيار . . وفي الخطبة الشهيرة التي القاها عقب عودته من موسم الحج قال :

« . . فمن بايع رجلا عن غير مشورة المسلمين ، فإنه لا بيعة له هو ولا الذي بايعه » .

* * *

فإن عهد الإمام القائم بالأمر لآخر من بعده — كما فعل أبو بكر مع عمر — فلا بد من توافر شروط الإمامة فيمن يعهد وفيمن يعهد إليه من أمانة ونزاهة وكفاءة وورع وإخلاص . . ثم لابد من توثيق هذا العهد برضاء الأمة أو الأغلبية منها وإقراره .

أما توريث ابن أو قريب غير صالح للإمامة ، وليس معه من شروطها وصفاتها شيء ، إلا ما يصله بالموصى من قرابة أو صهر ، فهذا مناف لروح الإسلام ووجهته .

يقول ابن خلدون (٢) :

« وأما أن يكون المراد بالعهد حفظ التراث على الأبناء فليس من المقاصد الدينية ، وينبغي تجنبه خوفا من العبث بالمناصب الدينية » .

وعلينا أن ندرك جيدا أن اختيار أبي بكر لعمر لا يعنى غفدان العامل الديمقراطي في اختيار الخليفة .

(٢) المقدمة

غابو بكر اختار عمر لا بصفته الشخصية ، بل بوصفه خليفة نبوا منصبه هذا باقتراع الامة عليه واختيارها اياه ، فكانه نقل بيعة الامة منه الى من اختاره .. ثم انه اختار اصلح المسلمين لهذا المنصب في تلك الظروف .. ثم انه قبل اختياره استشار جمهرة الصحابة وقادتهم .

يقول الطبرى في تاريخه (١) :

« ان ابا بكر لم يكتب عهده لعمر الا بعد ان استشار كبار الصحابة وهم قادة الراى وموضع ثقة الامة فأتوا كلهم على عمر . وقال عثمان بن عفان : [اللهم ان علمى به ان سريره خير من علانيته ، وان ليس غينا مثله]

« ولما اتم استشاراته اشرف على الناس فقال لهم : [اترضون بمن استخلف عليكم . . ؟] فأتى ما لوت من جهد الراى ، ولا وليت ذا قرابة ، فقالوا سمعنا وأطعنا »

ثم ، وهذا هو الاهم فان جميع المسلمين في شتى الانحاء وافقوا يومئذ على تنصيب عمر خليفة ولم يقم أحد بالاعتراض مع قدرتهم على ذلك لو أرادوا بدليل ما حدث في اواخر عهد عثمان . . وكذلك لم تكن بيعة « عثمان » من الستة الذين اختارهم « عمر » لترشيح الخليفة واختياره . بل كان . . وهنا فترك الحديث لابن تيمية الذى يقول : (٢) « ان عثمان لم يصر اماما باختيار بعضهم ، بل بمبايعة الناس له . وجميع المسلمين بايعوا « عثمان بن عفان » ولم

(٢) منهاج السنة .

(١) الجزء الاول :

يتخلف عن بيعته أحد . . قال الامام أحمد : ما كان في القوم من بيعة عثمان كانت بأجمعهم . والا لو قدر أن عبد الرحمن بن عوف بايعه ثم لم يبايعه على ولا غيره من الصحابة أهل الشوكة لم يصرا لها .

« ثم ان ابن عوف حلف أنه أقام ثلاثا لم يفتض فيها بنوم يشاور السابقين الاولين والتابعين لهم بأحسن ، ويشاور أمراء الانصار فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان . وقدموا عثمان وبايعوه ، لا عن رغبة أعطاهم إياها ، ولا عن رهبة أخافهم بها » .

وايا ما يكن الامر ، فان روح الاسلام وروح ما أسلفنا من وقائع ثم روح العصر الذي نعيش فيه تحتلان قيام البيعة لرئيس الدولة بالشورى والاقتراع الحر الذي تيسرت أسبابه فأصبح من المستطاع معرفة رأى الأمة فيمن تختاره لرئاستها وتقتزع عليه في يومين أو ثلاثة مهما يبلغ تعدادها وتتسع رقعتها .

وعلى اختيار الشعب لحاكمه يتوقف مستقبله القريب والبعيد ومن الظواهر الصادقة أنه كلما كانت الأمة عالية في مستواها الحضارى ، كان اختيارها لحكامها صائبا وسديدا .

والاسلام يعلمنا أن سوء اختيار الحاكم ايزان بضياع الأمة . . يقول عليه السلام :

« اذا وسد الامر الى غير أهله فانتظر الساعة » .

أى إذا ولى الحكم فى أمة من الأمم من ليس أهلا له ، فانتظر
ساعة هذه الأمة تدق . علنة ضياعها وهلاكها . . . !!
والحاكم المسلم يحقق أمرين لابد منهما — القدوة الصالحة ،
والعدالة الشاملة .

انه يرث رسول الله فى منصبه كقائد دولة ، لهذا كان حتما عليه
أن يسير على نهج الرسول ما استطاع الى ذلك سبيلا .

ويصف الامام على الحاكم المسلم فى شىء من التفصيل فيقول :
« لا ينبغي أن يكون الوالى على الاعراض والدماء والمغانم
والاحكام وامامة المسلمين بخيلا ، فتكون أموالهم نهمته . .
ولا جاهلا ، فيقتلهم بجهله . . ولا جافيا ، فيقطعهم بجفائه
. . ولا خائفا من الدول ، فيتخذ قوما دون قوم . . ولا
مرتشيا فى الحكم ، فيذهب بالحقوق ويوقف بها دون المقاطع
. . ولا معطلا للسنة ، فيهلك الأمة » . . .

وللدولة المسلمة طاعة ابنائها مادامت متحققة بالدين الذى
أقامها ودعا الناس لطاعتها .

يقول عليه السلام :

« اسمعوا وأطيعوا ، وإن استعمل عليكم عبد حبشى كان
رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله » .

ويقول عليه السلام :

« على الرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره الا ان
يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

أجل ما أقام فيكم كتاب الله . . أى ما احترم الدستور الذى تحيا عليه وتدين به الدولة المسلمة .

فإذا فسق الحاكم وبغى وظلم فلا سمع له ولا طاعة . بل ولا بيعة . وعلى الأمة أن تنبذه وتخلعه .

ذلك أن الدولة كلها وسلطاتها الثلاث جميعا — التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية — كل هؤلاء أمناء على حكم الله وعلى مشيئة الشعب .

وأى نوع من الحكم يعطل كتاب الله الذى هو دستور الدولة المسلمة ويتحدى ارادة الأمة ، ويودى بسيادة القانون فلا حرمة له ولا ذمة ولا بقاء .

ولا تنتهى مهمة الأمة باختيار الحاكم ، بل تبدأ بهذا الاختيار . وتذهب معه كل مذهب ، وتراقبه وتعاونه على البر والتقوى، وتزجره عن الخيانة والانحراف .

وهذا يتأتى بوجود رأى عام قوى وذكى .

والرأى العام فى الدولة المسلمة ضرورة مفروضة ، لانه صمام الأمان ، والعين الثاقبة ، والكلمة الطيبة .

والرأى العام ، هو ما أسماه القرآن والاسلام [الامر بالمعروف والنهى عن المنكر] .

أجل — هذا هو ما نسميه اليوم بلغة العصر « الرأى العام » . ذلك ان وظيفة الرأى العام هى متابعة أحداث المجتمع ومراقبة جميع

سلطاته ، وتسليط الضوء على الاخطاء السياسية والاخلاقية ،
والاجتماعية ، ومقاومة كل تحد للدستور والقانون ، وتبصير الآخرين
من فئات الشعب بواجبهم تلقاء المواقف والاحداث .

وهذه تماما هي وظيفة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ودور
الرأى العام فى الدولة المسلمة دور ترشيد وبناء .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« ان الله يرضى لكم ثلاثة :

« أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا » .

« وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

« وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » .

ويقول عليه السلام :

« الدين النصيحة .. قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ،

ولكتابيه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » ..

ويقول ايضا :

« ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم :

❶ اخلاص العمل لله

❷ ومناصحة ولاة الامر

❸ ولزوم جماعة المسلمين » .

فالنصح للحاكم اول وظائف وواجبات الرأى العام .. وكلما كان
الرأى العام مهذبا جاءت نصائحه مهذبة . فالنصح شئ آخر غير
التشهير به والحقده عليه .

واذا توجه الراى العام بنصحه فلولى الحاكم جوده وثنى عطفه ،
فان ذلك لا ينبغى أن يفت فى عضد الناصحين بل عليهم أن يتشبثوا
بكلمتهم ويرددوها كالنشد ، ويزيعوها بين الناس حتى يتكون حولها
راى عام يصبح قادرا على ابلاغها واخضاع الحاكم لها .

وكل حاكم يضيق بالراى العام ويحاول خنقه فهو فى نظر الاسلام
معطل لشريعة من شرائع الله وغريضة من غرائضه . . تلك هى
غريضة « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

لقد كرم الله هذه الامة المحمدية لانها تحب شعيرة الامر بالمعروف
والنهى عن المنكر ، فقال تعالى :

« كنتم خير امة اخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون
عن المنكر » .

واهان ولعن قوما آخرين لانهم تطلوا عن غريضة الامر بالمعروف
والنهى عن المنكر فقال سبحانه :

« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود
وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا
لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون » .

وقال عن احبارهم الذين صمتوا عن كلمة الحق :

« لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم واكلهم
السحت لبئس ما كانوا يصنعون » .

ووقف خليفة رسول الله ابو بكر يوما خطيبا فقال :

« سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان

الناس اذا راوا الظالم ، فلم يأخذوا على يده اوشك ان
يعمهم الله بعقاب .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر .
أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا
يستجيب لكم » .

الى هذا المدى يزود الاسلام دولته ومجتمعه برأى عام ففعال
وبار ونشيط . .

وكما قلنا ، فان محاولة الدولة احباط هذا الراى العام وواده
يعرضها لمقت الله وسخرية الناس ويحق عليها المقاومة وضرورة
التغيير .

ان الاسلام يدرك أن الحياة الانسانية مكتظة بالخطايا والاختاء
ويدرك ان الله لم يعط انسانا الحقيقة وحده مهما أوتى من بسطة
فى العلم والذكاء .

ويدرك ان السلطة المطلقة مفسدة مطلقة . . من أجل هذا راح
بحاصرها — ان صرح هذا التعبير — برأى عام يقظ ومخلص ورشيد .
ينهنه من كبرياء السلطة ويطامن من غرورها . فاذا تنكر الحاكم لهذا
الراى العام واحتال على اسكاته بالكذب والخديعة ، أو بطش به غير
مبق عليه ولا مكترث به فقد حرم نفسه قبل أن يحرم الامة من النور
الذى يضئ له الطريق .

والدولة كما نعلم ، تقف على رأس التنظيمات السياسية للامة

ولكى ينهض من حولها رأى عام يساندها اذا صلحت ، ويقومها
اذا انحرفت ، فلا بد لهذا الرأى ان يكون متمرسا بكل مشاكل الامة
وقضاياها وعلى وعى عميق بها . . ولا بد ان يكون له من الفكر
السياسى نصيب موفور . اذ كيف يكون له رأى فى القضايا السياسية
دون ان يكون له علم بها ؟!

ومن هنا نرى ان الاسلام عبادة وسياسة .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .

فالمسلم الذى يقضى نهاره صائما ، وليله قائما ، ثم ينفض يديه
من مشكلات أمته ، ويتخلى عن واجبه المحتوم فى الاهتمام بأمر الامة
المسلمة لا يكون منها ولا يحسب عليها .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« لان امشى فى حاجة اخ لى حتى تقضى أحب الى من ان

أعتكف فى مسجدى هذا شهرا » . . !!

هذا فى حاجة فرد . . فكيف بحاجات أمة ، ومشكلات مجتمع ،

وسياسة دولة . . ؟ !!

— ٨ —

والدولة الاسلامية دولة دستورية لها دستور ينظم حياتها
السياسية ، ويكفل حقوق الأمة عليها وحقوقها على الأمة . ولها
قوانين سائدة ومتطورة فى حدود علاقاتها بالدستور .
ودستور الاسلام هو القرآن ، والسنة ، والاجماع .

انقرآن أولا . . ثم تأتى السنة والاجماع ومعهما الاجتهاد ليفصلوا من القرآن ما أجل ، ويوضحوا ما أحكم . ويأتى الفقه الاسلامى فيضع القوانين المستنبطة من كتاب الله ، وسنة رسوله . واجماع امته ويثرى الاسلام اثراء هائلا وعظيما .

والقرآن دستور الدولة المسلمة يمتاز عن كل دساتير الدنيا ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها بأنه ليس من صنع البشر ، بل تنزيل من حكيم حميد .

وهو بهذه المثابة فوق كل محاولة للتمرد عليه أو التغيير فيه . ثم هو بهذه المثابة أيضا أكثر دساتير البشر تمكينا للاستقرار والرسوخ مع قابلية غدة وذكية لكل مسابقة لروح العصر وتطور الأنظمة ، وأن الانسان ليقع في حيرة شديدة كلما رأى حكومات اسلامية ومجتمعات اسلامية تتخذ القرآن مهجورا . . !!

ان دستور الدولة الاسلامية هذا فوق كل عصيان أو مخالفة . . هذا هو مكانه الذى بوأه الله اياه . . حتى الرسول الذى أنزل عليه لا يهلك مخالفته أو تغييره .

ونحن نعلم ان وجود حكومة ما يعنى ان هناك قانونا يطاع ويسود . فوجود حكومة اسلامية يعنى أول ما يعنى اجلال دستورها والخضوع لقوانينها .

ولقد جاء الاسلام بدستوره الالهى « القرآن » ثم وسع الفقه الاسلامى كما ذكرنا من قبل دائرة التقنين والتشريع بحيث فُصل وقتن كل علاقة للفرد بنفسه، وبأسرته، وبجيرانه، وبمجتمعه، وبحكومته ، وبعماله النفسى كله . . وقبل هؤلاء جميعا وطد علاقة الانسان بربه .

وإذا كان تحكيم الدستور وطاعته واجب الأمة ، فهو أولا وقبلها واجب الحاكم .

فالحاكم المسلم الذي لا يحكم الدستور القرآنى ، يصعب جدا الاعتراف له بأنه حاكم مسلم .

لقد ربط القرآن طاعة أولى الامر بطاعة الله ورسوله فقال :
« اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » .

ولعله لحكمة ما ، لم يقل : واطيعوا أولى الامر منكم اذ اعتبر طاعتهم امتدادا لطاعة الله ورسوله مادام حكمهم امتدادا لشريعة الله ومبادئ رسوله .

من أجل هذا كانت أول كلمات استقبال « أبو بكر الصديق » بها المسلمين اثر مبايعته :

« أطيعونى ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت فلا طاعة لى عليكم » .

ومعنى هذا أن الحاكم المسلم الذى يعصى الله فى حكمه ، ويجحد قرآن ربه ، يوقع فى نفس الوقت وثيقة عزله . .

ومن أجل هذا رأينا « الفاروق عمر » يستهل اللحظات البكرة من خلافته بسؤال وجهه الى حشود المبايعين :
« ما تقولون اذا ملت برأسى هكذا ؟؟ » .

فيجيبه أحد الصحابة وقد انتفض سيفه وشق به الهواء :
« ائن نقول بالسيف هكذا !! »

فيتهلل وجه « عمر » ويقول :

« الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم اعوجاج
عمر بسيفه » ..!!

ارأيتم ..؟؟

ان الرجل الذي يتحدث بهذه الكلمات هو الذي سيورثه الله عما
قريب ملك كسرى وقبسر .

الرجل الذي كان أصحابه يرقبون ابتسامته ترقب الاهلة من
طول كظمه شفقيه خوفا من الله وتوقيرا له ، وفرقا من مسئولياته
ان يزل شيئا او ينوء بها .

والرجل الذي خلق ليقود عالما ، والذي رزق طبيعة تقتلها
الراحة ويغريها العمل بالعمل (١) .

هذا هو الرجل الذي يتהלل وجهه ويتلألا الحبور على جبينه
عندما يرى سيفا يلوح به صاحبه وهو يقول لامير المؤمنين :

« اذن نقول بالسيف هكذا » !!!

* * *

ولماذا نعرض عن القرآن؟؟

لماذا نتهيب الحكم به والتسليم له؟؟

(١) راجع كتابنا « بين يدي عمر » طبعة دار المعارف .

انستطيع ان نحكم انفسنا بخير منه ؟؟ ايستطيع عباقرة التشريع
ان يتفوقوا عليه ، ويأتونا بأفضل منه ؟؟

هذا الذى نقل اليها كلمات الله عنه فقال :

- « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » .
- « ما أمرنا في الكتاب من شيء » .
- « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه » .
- « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور »
- « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » .
- « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يظن عليهم » .

انه دستور لا يزاحم ولا يناهض ولا يضاهى به سواه وليس أمام
الدولة المسلمة أى خيار فى أن تأخذ بعضه وتذر بعضه . وان غفلت
صمها تأنيب الله وهو يقول :

- « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض . . ! ؟
- « فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي فى الحياة الدنيا
- « ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ، وما الله »
- « بغافل عما تعملون » . . !!

كل ما تحتاجه الحياة ويحتاجه الناس من توجيهات ونظم وقوانين
وآداب موجود فى اسلامنا . . موجود فى قرآننا العظيم . . وليس ثمة
ما يدعو الى هجر القرآن ، ولا الى هجر الاسلام اللذين ارتضاها
الله لنا كتابا ودينا .

— ٩ —

ولكن ما منهج الدولة المسلمة في العلاقات الدولية . . ؟

وهل هي دولة حرب أم دولة سلام . . ؟

أما منهجها في العلاقات الدولية فتوضحه آية من آيات دستورها
« القرآن » تلك التي تقول :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم
يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم . ان الله
يحب المقسطين

« انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، واخرجوكم
من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم . ومن
يقولهم غاؤلك هم الظالمون » .

فالدولة المسلمة مأبورة من ربها ، ومدعوة من دستورها الى ان
تقيم تعايشا سلميا بينها وبين كل دولة لا تقدم اليها الاذى ولا تحوطها
بالمؤامرات .

ووفق الآية السالفة ، فان كل من لم يقاتلنا في ديننا ، ولم
يخرجنا — نحن المسلمين — من ارضنا ، ولم يظهر غيره على اخراجنا
فله مودتنا الخالصة وتعاوننا الوثيق .

وبالعكس ، فان كل من يقاتلنا في ديننا ويخرجنا من ارضنا ، او
يظهر الذين يخرجوننا ، فليس له الى مودتنا ولا الى صداقتنا سبيل .

هذا هو موقف الدولة المسلمة من العالم الذى حولها توضحه الآية الكريمة فى ايجاز مبين .

والهيئات الدولية التى تقوم والمواثيق الدولية التى تتشأ تأخذ الدولة المسلمة مكانها بينها وتحمل تبعاتها منها ، فلا تهدم بنيانا ولا تحنث بعهد وميثاق ، ذلك أن دستورهما يأمرها :

« يا ايها الذين آمنوا أوغوا بالعقود » .

« وأوغوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا » .

ولقد أنشأ الرسول صلى الله عليه وسلم معاهدات كثيرة تميزت بنشدانها السلام وتوكيدها على المشاركة العادلة فى خدمة المتعاقدين ولم يحدث أبدا أن نكث الرسول بعهد أعطاه أو موثق أمضاه .

ويصلنا الحديث بالسؤال الذى طرحناه آنفا :

هل الاسلام دين حرب أم دين سلام ؟

وعندى ان الجواب الصحيح هو ان الاسلام دين عدل . . فعندما تكون الحرب عدلا وتحقيقا للعدل فهو دين حرب . وعندما يكون السلام هو العدل فهو دين سلام .

لا يجبن عن نصره الحق ، ولا يهرب من تبعات السلام . . والمهم هو سلوك الآخرين . ماذا يريدون للاسلام . الحرب أم المسالمة . . ؟؟

لقد قال الله لنبيه ، وهو فى نفس الوقت أمر للدولة المسلمة :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها . وتوكل على الله . انه

هو السميع العليم » .

وامره وامر الدولة حيث تكون بأن تقف موقف الحذر من الذين :
« ان يثفوكم يكونوا لكم اعداء ، ويبسطوا اليكم ايديهم
والسيفتكم بالسوء . وودوا لو تكفرون » .

ونحن اذ نتتبع آيات القتال في القرآن — دستور الدولة
المسلمة — نجد ان اول آية نزلت أمرة بالقتال والجهاد كانت هذه
الآية :

« اذن للذين يقاتلون — بفتح التاء — بأنهم ظلموا . وان
الله على نصرهم لقدير » .
« الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا
الله » .

وكم هو رائع هذا التعبير « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا
— بضم الظاء — .

ان اول آية نزلت في القرآن تبيح القتال وتأذن للمسلمين بمجاهدة
عدوهم ، تمنحنا الفهم بأن المسلمين كانوا ممنوعين من حمل السيف
ضد عدوهم لعله يرتدع ويتذكر ويخشى ويثوب الى رشده بما يلقونه
به من حلم ومصابرة . فلما غشا بغيه واشتدت على المسلمين وطأته ،
أذن للذين يقاتلون بأنهم اى لانهم ظلموا . .

فهنا قوم مظلومون مضطهدون ، ورغم قدرتهم على القتال فهم
مدفوعون عنه وممنوعون منه حتى جاءهم الاذن من الله الذى هو على
نصرهم قدير .

وهذه الآية تبين طبيعة الحرب في الاسلام ووظيفتها . فهي حرب
دفاع ، لا حرب غزو واستعمار وقهر وتسلط .

وكذلك الآيات التي أنزلت خلال تطور المجابهة العسكرية بين الاسلام والشرك . بين المسلمين واعدائهم تلتزم نفس الغاية : الدفاع عن النفس . . والدفاع عن حق الانسان في اختيار عقيدته وايمانه ونوع حياته ، وحقه في دعوة الآخرين من بنى البشر الى ما يرى فيه صلاح امرهم .

فالايات تقول :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » .

وتقول :

« فان قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم » .

وتقول :

« وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهله ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

كل هذه الآيات نزلت تدعو المسلمين الى الدفاع عن انفسهم ، والى قتال من يقاتلهم ، فلما احتشد اهل مكة مع قبائل العرب واليهود مصممين على التخلص بالحرب من الاسلام ورسوله نزلت الآية الكريمة : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

ونزلت الآية الكريمة :

« وأما تخلفن من قوم خيائة فانبذ اليهم على سواء أن الله لا يحب الخائنين » .

لقد نبأ الله المسلمين بنوايا المشركين واليهود تجاههم فقال :
« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » . .

« ومن يرتدد منكم عن دينه فميّت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

امام هذا الجروح العنيد من أعداء الاسلام . وامام اصرارهم على ائفاء المسلمين لا يخجل الاسلام من أن يكون دين حرب وقتال . بل عندئذ يعد الجهاد في سبيل الله فريضة على المسلمين ويدعوهم أن يهبوا حاملين الراية منتضين السيوف طامحين الى احدى الحسينيين النصر ، أو الشهادة . .

وهو — أعنى الاسلام — لا يترك عندئذ فرصة لجعل المسلمين مقاتلين مستبسلين الا اغتتمها ودق طبول الحرب عندها .
« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

« الذين آمنوا ، وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله . وأولئك هم الفائزون »

« يا ايها النبي حرض المؤمنين على القتال » .

« .. واقتلوهم حيث ثقتبوهم ، واخرجوهم من حيث
اخرجوكم » .

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا
بالآخرة » .

« ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه
اجرا عظيما » .

« فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم
يذكرون » .

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم
الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه
حقا في التوراة والانجيل والقرآن . ومن اوفى بعهده من
الله » .

« ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان
مرصوص » .

« فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى اذا

انختموهم فشدوا الوثاق . غاماً منا بعد واما ذداء حتى
تضع الحرب أوزارها . .

اجل — لا يسوء الاسلام ولا ينفقص من قدره ان يكون دين
حرب وقتال اذا جوبه بعداوة حاقدة وهجوم مسلح من اعدائه واعداء
ذويه .

لن يدع الاسلام اهله يقفون مكتوفى الايدى وهم يذبجون ، ولن
يأمرهم ان يديروا خدhem الايسر لمن يلطم خدhem الايمن ، لان هذه
مثالية لم ترق اليها بعد طبيعة الانسان .

بل من قاتلك نقاتله . . ومن قتلک نقاتله .
« ولكم في القصاص حياة » .

« قاتلوهم ، يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم
ويشف صدور قوم مؤمنين » .

* * *

اننا حين نتتبع غزوات الرسول لا نجده قد خرج في واحدة منها
بادئاً بقتال . .

❶ كانت غزوة « بدر » دفعا للمشركين الذين جاءوا يقتحمون على
المسلمين حياتهم الجديدة في المدينة . .

❷ وغزوة « أحد » كانت دفعا للهجوم الكاسح الذي شنه المشركون
الذين جاءوا في ثلاثة آلاف مقاتل ، بينما خرج الرسول بألف رج

ثلاثهم من منتصف الطريق بتحريض زعيم المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول .

● وجرى قوم الى الرسول يرجونه ان يرسل معهم وغدا من اصحابه يعلمون قومهم القرآن والاسلام . وفى الطريق غدروا بهم وقتلوهم فكانت غزوة « بنى لحيان » .

● لقد قتل المجرمون نفرا من خيار اصحاب الرسول . ولما علموا بخروج الرسول اليهم هربوا وتمنعوا فى رعوس الجبال وعلى الرغم من انه لم يدر قتال ، فقد تعلم خصوم الاسلام ان دم المسلم — أى مسلم — غال وعزيز .

● ويحاول اليهود من بنى النضير اغتيال الرسول عليه السلام ، فيخرج اليهم ويحاصروهم . . حتى اذا توسلوا اليه ان يتركهم يغادروا المدينة الى خيبر سمح لهم بذلك مع علمه تماما انهم فى « خيبر » سيحرضون عليه قريشا والقبائل .

● وقد حدث هذا فعلا ، فقد ذهب يهود بنى النضير هؤلاء يحرضون على الرسول قريشا وسائر العرب ، ويحزبون ضده الاحزاب حتى فوجئ المسلمون ذات يوم بعشرة آلاف مقاتل يهاجمون المدينة — وكانت هذه غزوة « الخندق » التى رد الله المشركين واليهود بغيظهم مدحورين .

● وفى غزوة الخندق هذه قام جماعة اخرى من اليهود ، هم يهود بنى قريظة بخيانة بشعة مولين ظهورهم لما كان بينهم وبين الرسول من عهد . وكادت خيانتهم هذه تودى بالاسلام والمسلمين فكان لابد من تأديبهم . وهكذا كانت غزوة « بنى قريظة » .

- ولا يكاد الرسول والمسلمون يستريحون حتى تأتيتهم الانباء بأن بنى المصطلق قد خرجوا لحربهم تحت قيادة الحرث بن أبى ضرار ، فكان لابد من ملاقاتهم وهكذا كانت غزوة « بنى المصطلق » التى هزم فيها الجيش المعتدى هزيمة ساحقة .
- ولا يكف اليهود عن التآمر ضد الرسول والاسلام ، ولا يقفون عن الدس والارجاف . وغرثهم مصابرة الرسول لهم . بل ومحافظته على كل حقوقهم واحترام شعائرهم فحشدوا جموعهم للاغارة على المدينة . وتزعم هذه المحاولة يهود خيبر ، فاضطر الرسول للخروج اليهم واسكات صوتهم الى الابد . .
- وتوجس الروم من الاسلام خيفة ، وصاروا يرون فيه خطراً يهددهم لا سيما في بلاد الشام التى يستعمرونها التى تتاخم بلاد هذا الدين الجديد . وهكذا راحوا يتخذون من الشام مركز شغب ووثوب وتجراً حلفاؤهم الغساسنة على قتل الرسول الذى بعثه النبى ا اليهم بكتاب يدعوهم فيه الى الاسلام ، وازداد تحرش الروم وتنبرهم وراحوا يحشدون جيشهم على الحدود فلم يكن بد من أن يخرج المسلمون اليهم وكانت هذه غزوة « مؤتة » .
- وينقض أهل مكة معاهدة الحديبية المبرمة بين الرسول وبينهم رغم ما أعطاهم الرسول فيها من تنازلات كادت تعصف بإيمان بعض المسلمين . ومع هذا غفى السنة الثامنة للهجرة نقضت قرىش عهدها ، وأغارت على حلفاء الرسول الذين استنصروا به فلم يكن بد من نصرتهم وهكذا كان فتح مكة العظيم !!
- ولا يكاد الرسول يتهاى للراحة قليلا حتى يذاجأ بعد خمسة عشر

يوما من فتح مكة بقدم هوازن وثقيف في جيش لجب يريدون قتال الرسول والمسلمين ، فكان لابد أن يخرج للقائهم ، وهكذا كانت غزوة «حنين» ثم حصار الطائف .

● ثم لا يمر الا زمن رجز حتى يفاجأ الرسول بحشود هائلة من الروم تتجمع على حدود فلسطين لقتال المسلمين ، فكان لابد أن يخرج الرسول اليهم على رأس جيش عظيم — وهكذا كانت غزوة «تبوك» التي هي آخر غزواته عليه الصلاة والسلام والتي انتهت دون قتال .

غايين في ذلك كله روح العدوان ؟! أين حب المغامرة الشريرة والقتال الباغى .. ؟!

الا ان الاسلام دين القتال ما كان القتال عدلا .. ودين السلام ما كان السلام عدلا .

والدولة المسلمة مأمورة بالتزام هذا النهج دون الخراف ودون تفريط .

— ♦ —

ودولة الاسلام حصن حصين للاقلية التي تعيش معها وبين مواطنيها ، لا سيما حين تكون هذه الاقلية اهل كتاب أو اهل ذمة كما يسميهم الاسلام .

ان الدولة الاسلامية مأمورة من الله ومن رسوله برعاية حرماتهم وحفظ حقوقهم ، وتركهم احرارا في العيش وفق معتقداتهم

يقول عليه الصلاة والسلام :
« من قتل معاهدا ، حرم الله عليه الجنة » .

ويقول عليه السلام :
« من ظلم معاهدا ، أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته ،
أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه ، فأنا حججه يوم
القيامة » .

وعن العرياض بن سارية السلمي رضي الله عنه يقول :
« نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قلعة خيبر
ومعه من معه من المسلمين . وكان صاحب خيبر رجلا
ماردا متكبرا ، فأقبل إلى النبي صلى الله عليه وسلم
فقال : يا محمد ايجل لكم أن تذبحوا حمرنا ، وتأكلوا
ثمرنا وتضربوا نساءنا . . ؟

« فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن
عوف . اركب فرسك ثم ناد : ان الجنة لا تحل الا للمؤمن
وان اجتمعوا للصلاة ، فاجتمعوا ثم صلى بهم عليه السلام
ثم قام فقال : ايجسب أحدكم متكئا على أريكته يظن ان
الله تعالى لم يحرم شيئا الا ما في القرآن . . ؟!

« الا واني والله قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء
انها لمثل القرآن .

« وان الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب
الا باذن ولم يحل لكم ضرب نسائهم ، ولا أكل ثمارهم اذا
أعطوا الذي عليهم !!

فلاسلام يحفظ حقوق المواطنين جميعا مسلمين كانوا ، أم يهودا
أو نصارى واذا كان يفرض على اليهود والنصارى « الجزية » ، فكما
يفرض على المسلمين « الزكاة » ككتمانهم حرية تؤدي لبيت المال . بل
ان المسلم يدفع الزكاة ويحارب ويتحمل كل مشاق القتال أما الذمى
يهوديا كان أو نصرانيا غانته لا يحارب ولا يخرج لقتال . . !!

وحين نطالع على سبيل المثال بعض المعاهدات التى حررها
رسول الله عليه السلام وخلفاؤه من بعده لاهل الكتاب نرى عجا . .

فاليهود يقول الرسول فى عهده لهم : معهم :

« ان يهود بنى عوف امة مع المؤمنين . . لليهود دينهم ،
وللمسلمين دينهم — مواليتهم وانفسهم الا من ظلم
وائثم ، غانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيته » (١)

ثم يعدد الرسول بقية اليهود الذين لهم مثل ما لبنى عوف من
عهد .

وفى عهده لنصارى نجران يقول عليه السلام :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب امان من الله
ورسوله نلذين اوتوا الكتاب من النصارى — من كان
منهم على دين نجران ، أو على شىء من نحل النصرانية
كتبه لهم محمد بن عبد الله رسول الله الى الناس كافة .
ذمة لهم من الله ورسوله وعهدا وعهده الى المسلمين من

(١) كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة .
جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيزر آبادى .

بعده . عليهم أن يعوه ويعرفوه ويؤمنوا به ويحفظوه لهم
« ليس لاحد من الولاة ، ولا لذى شيعة من السلطان
وغيره نقضه » .

ثم يفصل حقوق النصارى في كتاب آخر وعهد آخر وخبه يقول:
« ... للسيد الحارث بن كعب ، ولاهل ملته ، ولجميع
من ينتحل دعوة النصرانية في شرق الارض وغربها ..
اعطيهم عهد الله وميثاقه أن احفظ اقاصهم ، واحمي
جانبيهم ، واذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت
صلواتهم وأن ادخلهم في ذمتي واماني ، ولا يهدم بيت من
بيوت بيعهم ، ولا يدخل شيء من بنائهم في شيء من ابنية
المساجد ولا منازل المسلمين فمن فعل ذلك فقد نكث عهد
الله وخالف رسوله » .

والميثاق طويل فليراجعه من يشاء في مصدره (١) وهو ميثاق يزخر
بائبل ما في الانسانية من عاطفة ، وأعظم ما في الحياة من وفاء ورحمة
وصدق ونبيل .

وعندما بوبع « أبو بكر » جدد العهد لنصارى نجران كرة اخرى:
« هذا ما كتب به عبد الله ابو بكر خليفة محمد رسول
الله صلى الله عليه وسلم لاهل نجران » .

« أجارهم بجوار الله ، وذمة رسوله على انفسهم ،
وأرضهم ، وملتهم ، وأموالهم ، وحاشيتهم ، وعبادتهم ،

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة

وغائبهم ، وشاهدهم ، وأساقفتهم ، ورهبانهم ، وبيعتهم ،
وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير » ..

وكذلك فعل « عمر » في العهد الذي أعطاه لنصارى المدائن
وغارس :

« .. أما بعد فإني أعطيتكم عهد الله وميثاقه ، على
أنفسكم وأموالكم وعيالكم ورجالكم وأعطيتكم أمانى من
كل أذى ، والزمتم نفسى أن أكون من ورائكم ذابا عنكم
كل عدو يريدنى بسوء وإياكم .. وإن أعزل عنكم كل أذى
.. ولا يغير أسقف من أساقفتكم ، ولا رئيس من رؤسائكم
ولا يهدم بيت من بيوت صلواتكم ، ولا يدخل شئ من
بنائكم إلى بناء المساجد ولا إلى منازل المسلمين ، ولا
تكلفوا الخروج مع المسلمين إلى عدوهم لملاقاة الحرب ،
ولا يجبر أحد من النصارى على الاسلام عملا بما أنزل
الله فى كتابه [لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي]
« ولى شرط عليهم : ألا يكون أحد منهم عينا لاهل الحرب
على أحد من المسلمين فى سر ولا علانية ، ولا يؤوا فى
منازلهم عدوا للمسلمين ، ولا يدلوا أحدا من الأعداء
ولا يكتبوه .. الخ »

فى أى دنيا غير دنيا الاسلام نجد هذا التسامح الفريد .. ؟
وأين هذا بما صنعتته أسبانيا المسيحية بالأمس مع مسلمى
الاندلس الذين ورثوا الاسبان حضارتهم ومدنيتهم .. ؟
وأين هذا مما تصنعه قوى التبشير المسيحى العالمية اليوم من
كيد للاسلام وللمسلمين .. ؟

ولنقرأ الأمان الذي أعطاه أمير المؤمنين لاهل ايليا ، وهذا نصه
كما يرويه الطبرى :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين
اهل ايليا من الأمان . . أعطاهم أمانا لانفسهم وأموالهم ،
ولكنائسهم وصلبانهم . . ألا تسكن كنائسهم ولا تهدم
ولا ينتقص منها شيء ولا من صليبهم ولا من أموالهم ،
ولا يكرهون في دينهم ، ولا يضرار منهم احد » .

الا ان اعظم هبات الاسلام لهو التسامح . وهو لا يضمن رواءه
على قريبيه العهد من الرسول وحسب بل وعلى كل من اعتنق
الاسلام وغمه ووعاه . . بها تباعدت به العصور .

وهذا هو الدكتور حسن ابراهيم رحمه الله يحدثنا عن كرامن
ان « ازبك خان » وهو أول من أدخل الاسلام الى روسيا ، وكان
شديد التحمس له ودائب الدعوة اليه ، علمه الاسلام كيف يكون
التسامح وحرص غزيلة في مؤاده فتسامح مع رعاياه من المسيحيين
ومنحهم الحرية التامة في اقامة شعائهم ، وسمح لهم بالتبشير بدينهم
ونشره في بلاده وحرر بهذا وثيقة تقول :

« ان كنيسة بطرس مقدسة ، ولا يحل لاحد ان يتعرض
لها ، أو لاحد رجالها بسوء ، ولا أن يستولى على شيء من
عقارها أو متاعها ، ولا أن يتدخل في أمورها . ومن خالف
أمرنا عذا بالتعدى عليها فهو مجرم أمام الله ، وجزاؤه
منا القتل » (١) .

(١) التاريخ السياسى للإسلام ج ١ .

الا حيا الله الاسلام ، وحيا امله وذويه في كل زمان ومكان .
ان هذه الوثيقة التي نطالعها الآن كتبت في القرن الرابع عشر
الميلادي وهى شبيهة بالعهد الذى قطعه على نفسه أمير المؤمنين في
السنوات الاولى من القرن الاول الهجرى !!..

وعلى طول ما بين العهدين من قرون ، فكأنهما عهد واحد ،
لأنهما يستقيان بماء واحد ، وينهلان من روح واحد هو روح الاسلام
العظيم الذى قال دستوره الخالد :

« ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

« ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هى احسن » .

— ١١ —

والاسلام بعد ذلك دين حضارة لا يعرف التخلف ولا الجبود .
واذ كانت الحضارة تبدأ بالمعرفة والعلم ، فقد علم الاسلام ابناءه ان
يركضوا الى العلم ركضا ، ويتزاحموا حوله بالمناكب ، ويقبلوا عليه
اقبال العاشق المشغوف .

والعلم الذى يحض الاسلام اتباعه عليه هو علم النيا والآخرة .
العلم الذى يزكى النفس ويسمو بالروح ويعرف المسلم حق الله عليه .
ثم العلم الذى يجعل الدنيا مكانا طيبا للحياة عن طريق الحضارة فى
شتى مجالاتها وصنوغها النظيفة .

يقول القرآن الكريم :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .. ؟

ثم يتوج العلماء بتاج الكرامة حين ينعتهم بأنهم من أكثر الناس
معرفة بالله وخشية له :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » .

والله رب العالمين يدعو عباده الى السعى نحو العلم ويعيدهم
بأن يمهدهم من فضله بما لا يستطيعون الوصول اليه من علوم الدنيا
وعلم الآخرة الا بما يهبهم من عطائه . ويدهم من علمه :
« ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

ويحضهم القرآن الكريم على افراغ الوسع في محاولة كشف
المجهول مخبرا اياهم أن لكل نبا مستقرا ، ولكل مجهول نهاية يحوله
العلم بها الى معلوم .

« لكل نبا مستقر ، وسوف تعلمون » .

ويدعو اتباعه الى الاستزادة من العلم دون توقف او تردد :

« فاسألوا اهل الذكر ان كتمت لا تعلمون » .

ويبين الله على عباده بأنه :

« علم الانسان ما لم يعلم » .

واذا كان المعلم هو الله فمعنى ذلك أنه لا نهاية لما سيصل اليه
الانسان من علم ومعرفة ، وهذا هو السر العظيم الذى يقف وراء
المعرفة الانسانية التى لا تعرف النقصان أبدا ولا التوقف . وانما هى
من مزيد الى مزيد .

ذلك لان الله هو المعلم [علم الانسان ما لم يعلم] والمعلم سبحانه

لا حدود لقدرته ولا منتهى لعلمه ، ولهذا نجده سبحانه يقدم البنا
واحدا من عباده الصالحين فاق غيره في العلم بالله والعلم بالحياة فيقول :
« وانه لذو علم لما علمناه ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

وعظمة المسلم ماثلة في ان الله سبحانه دثره بالعلم الذى يعرفه
به وبالعلم الذى يكشف له سعادته في حياته ودنياه .

واذ يعلم الله ضعف النفس البشرية وانخداعها بمظاهر الحياة
اباطلة وركونها اليها فقد دعا عباده المؤمنين أن يجعلوا لشغفهم بالمعرفة
كوابح و « غرامل » حتى لا تسلك بهم مسالك الشر والتدمير ،
والا ينقادوا في غمرة حماسهم وراء العلم الذى يزخرف الحياة ناسين
العلم الذى يصلهم بالله ويعرفهم به .

اجل — ان القرآن ليدعو المسلمين الا يكونوا من الذين :
« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم
غافلون » .

وهنا يبين الفارق الكبير بين الحضارة التى تشاد على قواعد من
علم مغرور ملحد ، والحضارة التى تشاد على علم ورع خاشع
لله رب العالمين .

ان الاولى تتحول الى وباء يفتك بالبشرية ويضع مصيرها على
الهوة الماغرة . . بينما الثانية ترتقى بالانسان روحا ومادة الى آفاق
مأمونة .

ويقودنا الرسول عليه الصلاة والسلام في طريق المعرفة والعلم
قودا حكيما ودعوبا . ويعلمنا فيقول :

« من سنك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله به طريقا
الى الجنة » .

والعلم النافع المضى الذى يهتدى القلوب الى الله ، ويهتدى
العقول الى الصواب ، ويحقق للحياة الانسانية السلام والامن والتقدم
وعافية الحياة هو العلم . . وهو ليس نافلة يتعلمه من يشاء بل هو كما
يقول الرسول :

« طلب انعلم غريضة على كل مسلم » .

ويجعل المعاناة في تحصيله جهادا .

« من خرج في طلب العلم ، فهو في سبيل الله حتى يرجع »

بل اكثر من ذلك يقول عليه السلام :

« من جاءه اجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه
وبين النبيين الا درجة النبوة » .

« اذا جاء الموت طالب العلم وهو يتعلم مات شهيدا »

« لا حسد الا في اثنتين :

● رجل اتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق

● ورجل اتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها » .

« ان العلماء ورثة الانبياء . ان الانبياء لم يورثوا دينارا

ولا درهما ولكن ورثوا العلم ، فمن اخذه اخذ بحظ وافر »

« ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع »
ونعود الى سؤال المحنا اليه من قبل ، هو أى علم يريد
الرسول ؟

انه — أولا — العلم الذى يفسر للناس أمور دينهم ، ويدفع
حياتهم فى طريق الفضيلة والخير ، ويوثق اتصالهم بالله .

« تعلموا الفرائض والقرآن ، وعلموا الناس ، فانى
مقبوض » .

ويقول :
« نضر الله امرا سمع مقالتي فحفظها ووعاها ، وبلغها
من لم يسمعها » .

فالعلم الذى يقدم للناس دين الله وسنة رسوله يأتى فى الصدارة
من كل العلوم .

وبعدئذ يجيء العلم بكل انواعه . العلم الذى يشيد الحضارات ،
وينفع الناس وينهى عطاء الحياة .

فالعلم الذى يقود خطى الحضارة فى رشد ، ويسهم فى دفع التقدم
الانسانى وينتفع به فى توفير الراحة والخير للناس — المسلمون
مدعوون اليه .

وفى هذا المجال يقول الرسول عليه السلام :
« اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث :
— صدقة جارية . .

— أو علم ينتفع به ..

— أو ولد صالح يدعو له .. »

فقله عليه السلام [علم ينتفع به] ينتظم علوم الحياة التى تنفع
الناس وتيسر لهم وسائل العيش ، وتزيد ثراءهم العقلى والروحى .

وهو ايضا المعنى بقول الرسول :

« الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها »

لقد وعى رسول الله قول الله له :

« وغوى كل ذى علم عليم » .

وقوله سبحانه :

« وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

فما هذا العلم الذى لا منتهى لابعاده ولا حصر لعلمائه ؟؟

انه علم الدنيا والآخرة .. علم النفس وعلم الحياة .. علم الكون
بكل ما نستطيع أن نصل اليه من كشف وأسرار .. العلم الذى تتم به
عمارة الارض ، وازهار الحياة ورغعة الانسان .

« اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

غلا حدود من تخوم الارض ، ولا من تخوم العقيدة ترد المسلم
عن أخذ العلم النافع والحكمة الصادقة والمعرفة المتساوقة .

فالجعل هو الخطيئة الكبرى التى يعيذ الرسول منها امته .

وكما يقول الاحف :
 « كل عز لا يوجد بعلم ، غالى ذل مصيره » .

ولقد وعى علماء الاسلام روح التوجيه النبوى الكريم فتفوقوا في كل صنوف العلم وتلقوا ، ثم علموا الدنيا ، وشادوا الحضارات .
 وهكذا بلغ العلم ارفع المنازل في الامة المسلمة والدولة المسلمة .
 وهكذا كان في كل عصور التاريخ الاسلامى يقود خطى الموكب العظيم الذى ظل يحمل راية التوحيد والايمان والفضيلة والخير والحضارة والتقدم فزونا تلو قرون .
 وما نحسب العلم بلغ الغاية في رشدته وهديه ونفعه للناس ،
 واحيائه للروح والعقل وللضمير دون انحراف او زيف او تخريب مثله
 بلغ من ذلك كله في ظل الامة المسلمة . . خير امة اخرجت للناس !!
 * * *

فالدولة المسلمة، وهذا مكانها من العلم، وهذه منزلة العلم فيها،
 اولى الدول بتبنى قضية الحضارة الانسانية والغيرة عليها والاسهام
 في بنائها واخذ الحظ الوافر منها .
 وعبر التاريخ نلتقى بالحضارة الاسلامية وهى توقظ العالم من
 سباته وتعلم أوروبا وغير أوروبا أن تستجيب لدعوة التمدن والتقدم
 وأن تأخذ مكانها — ولو في آخر الصفوف — بين موكبها الهادر الذى
 كانت تقوده حضارة الاسلام وترعاه .
 ان الجانب النظيف من حضارة أوروبا والغرب انما ولد في حجر
 الحضارة الاسلامية وتعذى بلبانها .
 ومن دمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، وغرناطة ، وقرطبة وغيرها

كانت انوار الحضارة تشع منادية اليها القاصدين والرواد من أوروبا وغيرها .

وكانت حضارة تقوم على المادة والروح دون أن تسلم احداها للآخرى ، ومهما يكن من أمر الانفلات الاخلاقي الذي أصاب الدولة المسلمة في بعض مراحلها فان الجانب الروحي بقي له نفوذه ودعائه والداعون اليه سرا وجهارا .. وليلا ونهارا ..

لقد اكتشف العقل الاسلامي في ظل دولته وبمعاونتها أروع الكشوف في جميع غرور المعرفة البشرية وفي نفس الوقت كان ثبات ايمانه وشموخته أمرا ملحوظا ومثرا .

كنا اساتذة العالم في التجارة ، وفي العلوم بثنتى انواعها ، وفي الكشوف والمخترعات ، في الطب .. في الادب .. في الفن .. في العمارة .. في الفلك .. في الكيمياء .. في الصناعة .. في الزراعة .

ويوم كان تجار المسلمين يطوفون العالم برا وبحرا بتجارتهن ، كانت أوروبا تقذف بقراصنتها يعيثون في سواحلها غسادا ونهباً وتخريبا .

ان اعظم المخترعات التي تبهرننا اليوم يرجع الى آباءنا المسلمين العلماء فضل كشفها .

نقول « زجريد هونكه » (١)

« اننا نقف الآن مشدوهين متعجبين أمام تطور غن الصواريخ العظيم دون أن نمسك أنفسنا الى من ندين بهذا الاختراع » .

(١) كتاب « شمس العرب تشرق على الغرب » .

ثم تثبت أنهم آباؤنا العرب المسلمون هم الذين يدين لهم الغرب والشرق بهذا الاختراع اذ كانوا أول من وضع نظرية تركيب البارود المتدفع في القرن الثانى عشر .

وعلم الرياضيات والفلك والبصريات والحساب والجبر والارقام وعلم طبقات الجو — الارصاد الجوية — وعلم الميكانيكا . . واختراع الاجهزة الدقيقة المذهلة التى لا يكاد العقل يصدق أنها اخترعت في ذلك العصر البعيد .

وفي ظل الدولة المسلمة قام الخوارزمى وابن الهيثم والبيرونى وحسب ابن الهيثم أن نظسرياته في علمى الفيزياء والبصريات لا تزال حتى يومنا هذا تحكم العقل الاوروبى الذى يسير في ضوئها .

وحسب البيرونى أنه سبق « كوبرنيكس » وغيره . . سبقهم بخمسمائة عام الى اكتشاف أن الارض تدور حول نفسها ، ثم تدور مع الكواكب والنجوم حول الشمس ، وأن الشمس ليست السبب في تفاوت الليل والنهار بل هى دورة الارض ذاتها .

وكان عفدنا ابن سينا والفارابى وعمر الخيام . . ومن عجب اننا لا نعرف من عمر الخيام الا جانبىه اللاهى ، بينما المغرب وأوروبا يعرفان أنه الرجل الذى طور علم الجبر وأوصله الى قمة عالية من الازدهار .

« بل ان من الانصاف والحق ان نقول : ان عمر الخيام قد وفق في الارتقاء بعلم الجبر الى ذروة سامقة لم يعرف لها غيما بعد مثيل الا على يد الفيلسوف الفرنسى « ديكارت » (١) .

(١) المرجع السابق .

ومنا « ابن رشد » الذى يقول عنه ج. بيورى فى كتابه
« حرية الفكر » .

« ان اول موجة من النور اضاءت أوروبا كانت مؤلفات ابن رشد »
وبينما كان الطب فى أوروبا واقعا تحت ايدى الدجالين من رجال
الكهنوت حيث يعالجون بالشعوذة جميع انواع الامراض حتى الجراحة
كانت الدولة المسلمة تزخر بالاطباء المتقدمين والبارعين فى شتى
التخصصات .

تقول « زجريد هونكة » :

« أين هو البلد الذى عرف الطب بشموليته وعمقه وازدهاره
كما كان الطب العربى ؟ وأين هى الدولة التى عرفت مثل هذا الجمع
الكبير من الاخصائيين فى شتى حقول الصحة ، وتركيب الادوية
والمعاقم كما كانت الحال عند هذا الشعب ؟ وهل كان للمستشفيات
الحديثة فى الاصطاع العربية آنذاك مثل فى أى طرف من أطراف
الأرض . ؟ . ان وسائل العلاج عندهم تتحدث ببلاغة عن عظمة
أبحاثهم . كما ان علم الصحة عندهم أروع مثل يضرب . . ولم العجب
والدهشة ، والوضع كان كما نعلم . . الم يطلب الفرنجة مساعدة
العرب الطبية ويلحوا فى التماسها » (١) .

اننا حين نقرأ لكتاب أوروبا والغرب عن حضارتنا فى الطب
نجدهم يتحدثون عن مستشفيات كأعظم وأنظف ما وصلت اليه أوروبا
اليوم ، كما يتحدثون عن أطباء لم ير العالم لهم مثيلا .

(١) المرجع السالف .

وانهم ليتحدثون عن الطبيب المسلم أبى بكر محمد بن زكريا
الرازى فيصفونه بأنه « أحد أعظم أطباء الانسانية اطلاقا » .. !!

ويهيئون هياما شديدا بالعالم المسلم « ابن النفيس » من علماء
القرن الثالث عشر الميلادى — وهو أول عالم على ظهر الارض نفذ
ببصره الى اخطاء « جالينوس » ونقدها . ثم اكتشف نظرية الدورة
الدموية .

وعندنا ابن مسكويه وابن الخطيب والطبيب الطبرى الذين
ابدموا فى مجال الصحة والطب .

وكم من مكتشفات هائلة اكتشفها علماء الاسلام والعرب ،
انتحلها وادعاهما اوروبيون وظاهروهم على ادعاءاتهم كتاب وعلماء
اوروبيون .. !!

ولسنا نحن الذين نقرر هذه الحقيقة المؤسفة بل تقررها
المستشرقة الالمانية « زجريد هونكة » فتقول : (١)

« هذه المعارف المبتكرة العظيمة الشأن .. هذه
التحقيقات العلمية الرائعة التى قدمتها العبقريّة العربية
الاسلامية هدية منها للانسانية عامة ، ولاوروبا خاصة ،
هل رددناها الى مصدرها ، وأرجعنا فضلها الى
صانعيها .. ؟! »

« لقد كان الامر على العكس تماما ، فان أغلب
الاكتشافات العربية [الاسلامية] حملت معها ، ولا تزال

(١) شمس العرب تسطع على الغرب .

تحمل حتى يومنا هذا أسماء انجليزية ، او فرنسية ، اى
المائبة » .

لقد ظلت مؤلفات آباءنا المسلمين تدرس فى أوروبا مئات السنين
ولم يكن فى أوروبا كلها عالم واحد لم ينهل — فى مجال تخصصه —
من كتب آباءنا السالفين .

لقد كان آباؤنا المسلمون سادة حضارة من اعظم وأروع
حضارات العالم وليس ثمة ما يمنع ، بل هناك ما يدعم لى نستأنف
مسيرتنا الحضارية فى عالم ينقصه مما نملك ، الشيء الكثير .

فالدولة المسلمة دولة حضارة وتقدم ، وهى مسئولة عن تقدم
الحياة مثل مسئوليتها عن دين الله .

يقول مؤلف « الاسلام قوة الغد العالمية » :

« ان قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن ،
ولم تنجح الاحداث التى مرت بالمسلمين فى القرون الاخيرة
فى زعزعة ثقتهم به كقوة روحية .

« ان الروح الاسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة
ومشاعرههم . وستظل هناك مادام ثمة شعوب اسلامية
ربطت مصيرها بمصير الاسلام ، واعتقدت ان الرباط
الجامع بين اجناسها هو الاسلام .

« ان روح التعاطف والتوadd بين المسلمين هو السبب
الرئيسى فى تجميع القوى الوطنية على طريق « القومية
الاسلامية » . . وانه من الممكن للمسلمين أن يتقدموا فى
العلم والتكنولوجيا كما تقدم الاوروبيون وهم يومئذ لن

يكونوا بحاجة الى رباط يجمع شملهم سوى الاسلام وهو قائم فعلا ولم يفقدوه بعد » .

ان عظمة الاسلام الفريدة ماثلة في انه يسير بالتقدم المادى والتقدم الروحى فى طريق واحدة . وهذا يجعل مستقبله مستقبلا للبشرية كلها . . ذلك ان الحضارة الغربية المعاصرة تعاني هذه الآفة الثالثة . وهى ان التقدم المادى يضى هادرا وسريعا بينما تقدمها الروحى متخلف جدا وبطىء كذلك .

ويوم يكشف الوعى الانسانى حاجته الى المواعمة بين تقدمه المادى والروحى سيجد الاسلام فى انتظاره يمنحه حضارة المادة وحضارة الروح ، ويهديه سواء السبيل .

وهذه حقيقة يجب على المسلمين ان يستعدوا لتقبلها وحمل تبعاتها .

والدولة المسلمة فى عصرنا هذا مطالبة بان تصادق اكثر واكثر حركة العلم .

ونحن نعنى بحركة العلم ذاك التطور الخلاق الذى يقطع الحياة وثبا مظلما وراء العمى الذين لا يبصرون ، والصم الذين لا يسمعون ، والمقعدين الذين لا يواكبون ركبته ولا يتابعون خطاه .

ولا يعنى مسابقة حركة العلم والحضارة ان نفقد شخصيتنا الاسلامية وتقاليدنا ، ونذهب نقتل الغرب فى شكايات الحياة المنحلة ومظاهرها الماجنة والرخيصة . بل يعنى ان نحيا فى مستوى تعاليمنا

وديننا وتقاليدنا حياة متحركة ومتجددة وملتقىة مع روح العصر
وانجازاته الجادة .

على الدولة المسلمة اليوم — كل دولة — أن تتسلح بأسلحة
العصر لا عسكريا فحسب ، بل في كل مجالات الحياة . .

عليها أن تقوم بتصنيع مواردها وبلادها ، وأن تأخذ بحظ واغر
من أحدث ما وصل اليه العلم والتكنولوجيا أولا بأول ، وأن تتيح
لشبابها فرصة التزود الكامل بالمعرفة والعلوم . ونحن في هذا لن
نكون مقلدين لغيرنا ، بل سنكون قد استأنفنا حضارتنا التي غدت
العالم من قبل وعلته لغة الحياة .

علينا نحن المسلمين أن نفيد من كل فرص التقدم النظيف دون أن
نسلم رقابنا للاغلال ، وديننا للضياع ، وروحانيتنا للجفاف .

علينا أن نذكر أن دورنا مع حركة التاريخ وصنع الحضارة لا يزال
قائما . وأن الاسلام الذى نحمل لواءه لم يفته ولن ينتهى دوره في
ترشيد الحياة وهداية البشر ، كما لن تفتهى حاجة البشرية اليه .
وعلىنا أن نعمق ايماننا بأن الاسلام :

دين ، ودولة . .

حق ، وقوة . .

ثقافة ، وحضارة . .

عبادة ، وسياسة . .

طحق

بعد الفراغ من هذا البحث يطيب لى أن اضرب مثلاً ، وأقدم نموذجاً للدولة المسلمة وللحاكم المسلم .

ولن اختار هذا النموذج من بين الخلفاء الراشدين . فمقد يقال : تلك أمة قد خلت . . . وذاك طراز شهد الوحي ورياه الرسول . سأختار النموذج من العصر الأموي . ذلك العصر الذى شهد انحرافات بالغة ، والذى تنبأ له الرسول بأنه سيكون نهاية عصر الخلافة الراشدة وبداية عصر الملك العضوض .

سأختار « عمر بن عبد العزيز » . . . !!!

الرجل الذى حاول نقل عصر الوحي بمثله وفضائله الى دنيا هائجة مائجة ، مفتونة مضطربة ، متلفعة بالظلم والقهر ، متعففة بالتحلل والترف . . . ثم نجح في محاولته نجاحاً منقطع النظير . . . !!

لقد جعل من الملك العضوض الذى شاده الأمويون عبر ستين عاماً — قبل مجيئه — خلافة أوابة ، بارة ، عادلة ، تمثل كل فضائل وسمات عصر النبوة والوحي .

ومتى . . . ؟

ليس في عشرين عاماً ، ولا في عشرة أعوام . . . بل في عامين ، وخمسة أشهر ، وبضعة أيام . . . !!!

وهذا النموذج يرينا « روح » الدولة المسلمة و « ضميرها » كما يرينا شكلها الذى كان مثالياً بالنسبة لعصرها .

بيد انه لا يرينا الشكل « النهائي » للدولة المسلمة .. ففى عصرنا هذا لابد للشكل ان يختلف بقيام المؤسسات الدستورية ، والمجالس النيابية التى تضبط دور الحاكم ، كمنفذ لاحكام الله ، ووكيل عن الامة ولابد من صحافة حرة ، ومعارضة حقيقية وفعالة ، يخشاها الحاكم ولا تخشاه ؛ ويتلمس عندها الصواب والصدق وسواء السبيل .

ان النموذج الذى يقدمه لنا « عمر بن عبد العزيز » يرينا فى اية آفاق رغبة شامخة تحلق الدولة ويخلق الحاكم حين يكون الاسلام الحق هو المنهج ، وهو القدوة ، والامام .. !!

ولن اقدم هذا النموذج فى كتابة جديدة . بل ساستمر فصلا من كتابى « معجزة الاسلام : عمر بن عبد العزيز » ذلك الفصل الذى كلن الكتاب قد تضمنه تحت عنوان « المنهج » ..

راجيا ان يكون تنمة مباركة لحديثى هذا عن — الدولة فى الاسلام — ..

* * *

المنهج

كتب اليه واليه على خراسان يستأنفه في أن يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها ، قائلا في رسالته للخليفة « انهم لا يصلحهم الا السيف والسوط » ..
فكان رده التقى الحازم :

« كذبت .. »

بل يصلحهم العدل والحق ، فابسط ذلك فيهم ، واعلم ان الله لا يصلح عمل المفسدين » . !!!

* * *

العدل ، والحق .. !!

بهما وعليهما سيقوم منهج أمير المؤمنين ، وعلى طريقتهما اللابح المستقيم ، ستمضي خطاه .. آخذاً معه على ذات الطريق جيع الناس : أمراءهم ، وعامتهم .. أغنياءهم ، وفقراءهم . أثوياءهم ، وضعفاءهم .. !!

والخليفة ، الذي نراه دائم البكاء ، بل الفحيب . كلما ذكر الله واليوم الآخر .. والذي ينتفض تحت وقع ثقاه انتفاضة العصفور ، حتى لنحسبه لا يصلح لغير الصومعة يتحنث فيها ويتعبد .. !!

هذا الخليفة ، سيبهنا الآن ونحن نطالع منهجه واسلوبه في الحكم حيث تطل علينا من وراء دموعه المثالة روح عالية تناضل في جهاد مستبسل لبلوغ أسنى آفاق العدالة والحق .. وحيث تطل علينا كذلك بصيرة نافذة لا يفلت من ضيائها شيء ، واردة حازمة لا يهولها صعب ، ولا يجفلها خطر ..

ونجاة سنرى العيين السابحتين في دموعهما دوما ، تحديقان
كهميى الصقر .. وترسلان بريقا أخاذا ، يقنع كل من يتلقاه انه امام
عينين ثاقبتين ليس الى خداعهما سبيل ... !!

* * *

ان المصاعب المتطاولة ، والاطار المحدقة ، والمؤامرات
المقساوقة لن تزيد الارادة الرافعة لواء العدل والحق
الا تقدما ومضاء .

فلتغن العواقب لنفسها .. اما هو فلن يبالي بما كان ولا بما
سيكون منها .. بل سيبضع يمينه في يمين الحق ، ويمضى معه الى حيث
يدمدمان معا على مظالم وظلمات الاعوام الستين التى سبقته في الحكم
الاموى .. والى حيث يجعلان ظلماتها نورا .. وهجيرها فردوسا ..
وترفها قناعة .. وانحلالها ورعا .. واستعلاءها تواضعا .. وقهرها
رحمة .. ورعبها امنا .. !!

وبين يدي عزمه الربانى القدير ، راحت كلماته تقرر اسماع
الغطرسية ، والتحدى :

« والله ، لو لم ينهض الحق ويدحض الباطل الا بتقطيع
اوصالى واعضائى ، لامضيت ذلك وانا سعيد » . !!!
« والله ، لو لبثت فيكم خمسين عاما ، ما اقيمت الا ما
اريد من العدل » ... !!

فلنتابع منهجه لنرى ..

ولكن علينا الان ندع التفاصيل الكثيرة تشغلنا ببهرها عن الاسس
والقواعد .

وعلينا ان نقتصد في ذكر الوقائع والمشاهد التى تحكى خصائص
المنهج وسماته ، حتى يفيء علينا هذا التركيز فى الرؤية تركيزا مماثلا
فى نشوة العقل وغبطة الروح ..
اى أننا سنكتفى من المنهج بنقاط ارتكازه ومحاوره التى تدور
حولها بقية التطبيقات والتفاصيل .

وتتلخص هذه المحاور فى : —

- * نظرتة الى دور الدولة ووظيفتها ..
- * نظرتة الى دور الشورى ووظيفتها ..
- * نظرتة الى دور المال ووظيفته ..
- * موقفه من وحدة الامة وسلامتها ..
- * أسلوبه فى العمل ..

* * *

— فاولا : الدولة قدوة ..

ان الحكام الذين يفرضون سلطان القانون بسلطان الدولة
لا ياتون امرا مذكورا .. فذلك سنة مألوفة معتادة . ان تحمى القوة
القانون .

أما الحكام الذين يحمون القانون وينفذونه بالقسوة ، فأولئك
الذين يجاوزون المألوف المعتاد الى الخوارق والمعجزات .
ولقد كان « ابن عبد العزيز » واحدا من هؤلاء .

لقد كانت الدولة قبل هذه تحيا خارج وظيفتها وخارج حقيقتها،
اذ تركت مواقع عملها واستسلمت للغواية والهوى .

والدولة عنده تتمثل فى كل الاجهزة العاملة ، لكن يأتى فى المقدمة
ديانتها :

- ١ — الخليفة بوصفه رئيس الدولة .
- ب — الولاة بوصفهم حكام الاقاليم .
- ج — القضاء .
- د — امناء بيوت المال .

والخليفة — اى خليفة — وان وضعته وظيفته ومسؤولياته على رأس الدولة ، فانه يظل عاجزا عن أداء دوره ما لم يقف معه فى مستواه او قريبا من مستواه ولاته وقضاته وأمناءه على الاموال العامة .

ها هو ذا « عمر » يقول :

« ان للسلطان اركاناً لا يثبت الا بها ..

* « فالوالى ، ركن ..

* « والقاضى ، ركن ..

* « وصاحب بيت المال ، ركن ..

* « والركن الرابع ، انا » .. !!

واذن ، فلكى تكون الدولة قدوة فى حمل دين الله وحقوق الناس ، لابد أن تتشكل هذه القدوة من سلوك هؤلاء الاربعة مجتمعين .
الخليفة ، وولاته ، وقضاته ، وخزنته .

ولكى تكون الدولة قدوة ، لابد أن تكون بمسؤوليها جميعا ، وعلى رأسهم امير المؤمنين ، طليعة العمل ورائدته ..

وهكذا راح « عمر » يضع الدولة كلها وهو على رأسها فى مكان القدوة ، حاملة وحاملا معها كل ما تلقىه القدوة من مسؤوليات ، وبإذلا كل ما تتطلبه من تضحيات .
وقبل أن يأمر وولاته ، وقضاته ، وخزنته ، بدأ بنفسه .

لقد تلونا من تبل ، كلمته العظيمة :

« لست الا كأحدكم . .

غير انى أثقلكم حملا » .

وهنا ، نرى طريقته فى وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الحاسم ،
الحازم ، الفريد .

لقد كان دخله السنوى حتى اليوم الذى ولى فيه الخلافة اربعين
الف دينار . . هى حصيلته من مخصصاته كأمر أموى . . ومن الارض
التي كان يملكها . . ومن نصيبه الوفير من ميراث ابيه عبد العزيز
بن مروان .

والآن ، تتفتح بصيرته ، على الحقيقة العميقة ، غيرى ان هذا
الثراء الفاحش الذى يملكه أمراء بنى مروان — وهو معهم — لم
يلغوه بعرق الجبين . . وما هذه الثروة المتمركزة فى ايدى حفنات من
الأمراء والسادة ، الا حقوق الملايين وأقواتها سلبت منها بغير حق ،
ويغير سلطان . . !!

ومن غوره ، اتخذ قراره الحاسم بإلغاء كافة مخصصات الأمراء ،
ومخصصات حرسهم وخدمهم ، وقراره بنزع الاقطاعات الزراعية
منهم جميعا ، وردها الى بيت المال . .

وبدا بنفسه ، فغضى عن جميع أملاكه وأمواله !! حتى ارض
« غذك » فى « خير » وكانت خير ممتلكاته وأثمنها ، ولم يكن أحد
أقطعها اياها ، بل ورثها عن ابيه .

لكه سأل نفسه ومن أين جاء بها أبوه . . ؟ !

لقد أنفأها الله على رسوله عليه الصلاة والسلام يوم خيبر ،
فخصصها لابناء السبيل . وظلت كذلك حتى ملك الامر معاوية فوهبها
لمروان .. ومن مروان . وصلت الى ابنه « عبد العزيز » والد
« عمر » .

نقول : حتى هذه الارض ، تخلق عنها وكتب لواليه على المدينة
يامره أن يضمها للملكية الدولة ، وأن يصرف ريعها ونتاجها حيث كان
يصرف على عهد الرسول وخلفائه ..

لس ذلك منحسب .. بل لقد تنازل عن كل درهم في راتبه
المخصص له كأمير للمؤمنين .. !!

لقد اكتفى من دنياه كلها ، ولدنياه كلها ، بقطعة أرض صغيرة
كان قد اشتراها بحر ماله ، ولم تكن تغل أكثر من مائتى دينار في
العام ، راح يعيش بها هو وأسرته الكبيرة .

مائتا دينار في العام ، لرجل كان دخله — منذ أيام لا غير —
أربعين ألف دينار .. !!

مائتا دينار ، لحاكم أعظم ، وأكبر ، واغنى امبراطوريات عصره .
وعالمه ، يعيش بها طول العام وعرضه ، وتعيش معه أسرته التى
كانت هى الاخرى — منذ أيام — لا غير ، تخب فى النعيم خبا ..
وتعب من المباهج عبا .. !!
ولكن ، اى باس ؟!

اليس قد رفع الحق شريعة والعدل منهاجا ؟
فليكن حسبه الا تسقط الراية من يمينه .. وليكن حسبه ان
يخلق بها فى مستوى تتقطع دون بلوغه الانفاس .. !!

كل أرضه تركها للدولة ..

كل ثروته النقديه ، دفعها الى خزانة الدولة .

بل لقد جمع ثيابه وحلله الرافعة ، وحل زوجته واولاده ..

ثم جمع مراكبه وعطوره ومقاعه : ثم دفع ثمنها الذى بلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار الى بيت المال .. !!

ثم حرم نفسه حتى حقها المشروع فى راتب الخلافة الذى كان يستطيع أن يتنازل عن نصفه او عن ثلثه ، لكنه رفضه جميعا الى آخر درهم منه .. وراح يعيش بعائد أرضه الصغيرة — مائتى دينار قفا العام — بواقع ثلاثة أرباع دينار فى اليوم ، لأمير المؤمنين ، وزوجة أمير المؤمنين ، واولاد أمير المؤمنين ... !!

أفما كان يكتفيه أن ينفرد هو بأعباء القدوة ، تاركاً أهله واولاده يحيون ولو فى مستوى حياة أوساط الناس .. ؟؟

انه يعتبر هذا — لو حدث — احتيالا على المسؤولية ، وهروبا من تبعات القدوة ، ويرى النار تمد اليه السسنتها اللاهبة ، لتطوقه حساباً له وعقاباً .. !!

ومن ظن أننا نبالغ فى التصوير ، ونسرف فى صبغ الألوان ، فليطالع هذه الواقعة :

لقد عاد يوماً الى داره بعد صلاة العشاء ولح بناته الصغار .
فسلم عليهن كمادته ، وبدلاً من أن يسارعن نحوه بالتحية كمعادتهن .
رحن يغطين أفواههن بأكفهن ويتبادرن الباب .

فسال : ما شأنهن .. ؟؟

فاجيب : بأنه لم يكن لديهم ما يتعشون به سوى عدس وبصل .
فكرهن أن يشمن أنفواهن ريح البصل فتحاشينه لهذا ..
فبكى أمير المؤمنين ، وقال يخاطبهن :

« يا بناتى ... »

ما ينفعكن أن تعشن الالوان والاطياب ، ثم يذهب
بأبيكن الى النار .. ؟؟ .. »

وترى احدى بناته الصغار صديقة لها تزين اذنيها بلؤلؤتين
جميلتين ، فترسل احداها الى أبيها ضارعة أن يشتري لها مثلها .
ويدعو أمير المؤمنين خادمه ، ويأمره أن يجيء بجمرتين ملتهبتين
.. ثم يطلب ابنته فيقول لها :

« ان اسنطعت أن تجعلى هاتين الجمرتين فى اذنك ،
جئتك بلؤلؤتين كهذه » .. !!

ان مسؤولية القدوة — اذن — لا تنحصر فيه ، هو الخليفة
والحاكم .. بل — وحسب منهجه وتقديره — تنال أهله جميعا ،
حتى بنياته الصغار .. !

وهكذا راح يحملهم على التضحية فى سبيل المسؤولية والقدوة .
اقترب يوما من زوجته فاطمة ، وقال لها :

« انك لتعلمين من أين اتاك أبوك — عبد الملك بن
مروان — بهذه الجواهر ، فهل لك أن اجعلها فى تابوت ،
أضعه فى اقصى بيت المال ، وأنفق ما دونه ، فان خلصت
اليه أنفقته فى حاجات المسنين » .. ؟؟

ولم يكن قد بقى لفاطمة سوى هذا الحلى وهذه الجواهر ، وهى
عزيزة عليها ، لانها هدية أبيها لها فى عرسها وزفافها ..
ولكنها لا تجادل زوجها « القديس » حتى فى هذه .. وتجرد
منها نحرها ومعصمها ، فى غبطة ورضا .. !!

* * *

ويغادر — أمير المؤمنين — قصور الخلافة ، ويأوى الى دار
متواضعة ..

ثم لا تشهد هذه الدار ايقاد النار الالهيا ..
وياخذ على نفسه العهد الا يستحدث لنفسه شيئا من أشياء
الدنيا ومتاعها حتى يلقى ربه ..

يحدث ابن عياش ، فيقول :

« كان لعمر مرقأتان يرقى عليهما من صحن داره الى
حجرتيه ..

« غتهدمت احدى المرقأتين ، فأعاد بناءها رجل من اهله .
« فلما جاء « عمر » ووجدوها . سأل : من صنع هذا ؟ ..
قالوا : فلان . قال : الى به ..

« فلما جاء قال له عمر . ويحك انفسيت على « عمر » ان
يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة ؟ .. !!

« والله ، لولا أن يكون هدمى لها انفسادا بعد اصلاح
لهدمتها ورددتها الى ما كانت عليه .. » !!!

* * *

ويدخل عليه في داره احد خاصته المقربين ، فيجده بركن منها
تغطيه الشمس ، وقد دثر جسمه كله في ازار .. وحسبه الزائر
مرضا ، فسأله ما باله .. ؟

فاجاب امير المؤمنين :

« لا شيء ، غير انى انتظر ثيابى حتى تجف .. »

قال زائره : وما ثيابك يا امير المؤمنين .. ؟

قال عمر : قميص ، ورداء ، وازار .

قال صاحبه : الا تتخذ قميصا آخر ، ورداء ، وازارا .. ؟

قال الخليفة : كان لى ، ثم بليت .. !!

قال الزائر : الا تتخذ سواها .. ؟؟

وهنا شرقت ظلماته بدموعه ، وراح يجهش بالبكاء مسندا
جبهته على راحتيه ، وردد آية القرآن الكريم :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في

الارض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » .. !!!

ولما كان يريد للدولة في عهده ان تكون رحمة وحنانا ، فقد راح
يمزق عنها كل اقنعة الصلف والكبر والتمايز .

وايضا ، بدأ بنفسه ، فمنع الحراس ان يسيروا بين يديه . بل
منعهم كما منع الناس جميعا ان يقوموا له حين يطلع عليهم ، وقال لهم :

« انما يقوم الناس لرب العالمين » !!

وناداه يوما رجل من المسلمين قائلا : « يا خليفة الله في
الارض » .. فاخذته الرعدة الصالحة ، وصاح في الرجل :
« مه .. »

« انى لما ولدت اسمائى اهلى « عمر » ، غلو ناديتنى
« يا عمر » اجبتك .. »

« ولما كبرت اخترت لنفسى كنية ، فكنيت « ابا حفص » ،
غلو ناديتنى « يا ابا حفص » اجبتك .. »

« ولما وليتمونى اموركهم سميتونى « امير المؤمنين » ، غلو
ناديتنى « يا امير المؤمنين » اجبتك .. »

« اما خليفة الله في الارض ، فليست كذلك .. »

« انما خلفاء الله في الارض رسله وانبياءه » .. !!

ومنع الدعاء له فوق المنابر في خطبة الجمعة . وارسل بذلك
كتايا حازما الى ولاته في جميع الاقاليم ، قائلا فيه :

« مروهم فليصلوا على النبى عليه السلام . وليكن فيه
اطناب دعائهم وصلاتهم .. »

« ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات .. »

« وليستنصروا الله .. »

« وليكن دعاؤهم لعامة المسلمين .. »

« وليدعوا ما سوى ذلك » !!

* * *

واذا كان قد حمل واهل بيته معه مسؤولية القدوة على هذا

النحو المجيد والفريد . . اذا كانوا قد حملوها طائعين راغبين ، فان هذا لا يكفي ، بل لابد أن يحلها أيضا امراء بنى مروان جميعا . طائعين ان شاعوا . . وان ابوا فكارهين . . !!

لن يدعمهم يتبخخون باسمه ، ويتخذون من قرابته ملجأ ومغنا . اذا كان ولا بد ، فلتكن هذه القرابة ملجأ لهم من اطماعهم وشهواتهم . . ومغنا بالتزامهم منهج امير المؤمنين .

اما دون ذلك ، فلن تكون دنياهم في عهده كدنياهم قبل عهده . لن يظلوا طبقة فوق الامة . . ولن يدلف الى تصورهم وجيوبهم تلك الدخيل العام للدولة ، كما كان امرهم من قبل ان تهل على الدنيا ايلم الاغر ابن عبد العزيز . . !!

ولقد راحوا بكل ضراعاتهم يحاولون الابقاء على بعض امتيازاتهم لما غسلوا راحوا يناورون ، ولما أخفقوا راحوا يهددون .

ولكن رجل القداسة وقف لهم كائنقدر ، واحكم وضع الشكائم على غرورهم وأهوائهم ، ثم دفع بهم جميعا امامه على طريق العدل والحق ، مصفيا ترغهم المنهوم . . !!!

حدث يوما أن أرسل الى كل امير واميرة بقدر من المال ، يدبرون به امرهم ، ويستقبلون به حياتهم الجديدة الخشنة ، فتنادوا واجتمعوا ، وقرروا أن يوغدوا اليه صديقا له يرجوه باسمهم أن يرغع لهم العطاء .

فكان جوابه لهذا الصديق :

« والله لقد ندمت على هذا الذي أعطيته لهم ، وانى لاعلم

ان في المسلمين من هو احق به ، واحوج اليه منهم » .

وعاد مبعوثهم اليهم يقرع اسماعهم بكلماته المنفرة ، ويقول لهم :

« يا بنى امية ... »

« لا تلوموا الا انفسكم ، فقد عمدتم الى صاحبكم — عبد

العزیز بن مروان — غزوجهوه حفيذة « عمر بن الخطاب »

فجاعتكم بعمر بن الخطاب ، ملفوها في ثياب عمر بن عبد

العزیز ، فلا تلوموا الا انفسكم » !!

* * *

ويعود الخليفة ليضع كلتا عينيه على الولاة والقضاة ، والامناء
على الاموال العامة — اولئك الذين سمعناه من قبل ينعتهم بأنهم
والخليفة معهم يشكلون اركان الدولة والسلطان .

لقد كان يرى أن الولاة ، بحكم كونهم نوابه في حكم الاقاليم . .
والقضاة ، بوصفهم أهل الفصل في مصائر الناس بما يملكون من
كلمة الشريعة والقانون . .

وامناء بيوت المال ، بما لهم من سيطره مباشرة على الاموال
العامة وارزاق الناس .

نقول : كان يرى في هذه المناصب أخطر مناصب الدولة وأكثرها
ثقلًا وحساسية . . كما كان يرى في استقامة أمرها العامل الاول
والأهم لتمكين الخليفة من حمل مسؤولياته في قسطاس وصدق .

وهكذا راح القديس يستكمل سمات القدوة للدولة ، باختيار
ولاته ، وقضاة ، وامنائه في حرص من يختار عافيته ومصيره !!

ولقد كان من المفروغ منه ، أنه لن يجد من هؤلاء من هو في مستوى ورعه ، وشموخ نسكه وفضائله ، فراح يجتهد في العثور على من يكونون في مستوى رجائه وثقته . .

وسارع ، فعزل جميع الولاة السابقين الذين عملوا في خدمة المظالم السابقة . ثم ولى مكانهم من اصطفاهم للمهمة الجليلة امثال : « أبى بكر ابن حزم » و « عبد الرحمن القشيري » و « عدى بن أرطاة الفزاري » وآخرين من طرازهم واخوانهم .

وكان أول ما اوصاهم به ، هذه الوصاة الجامعة الرائعة :
« كونوا في العدل والاصلاح والاحسان ، بقدر من كانوا قبلكم في الظلم والنجور والعدوان » . . . !!

كذلك ، كان أول ما قدم به ولاته للناس هذه الكلمات الامينة :
« انى قد وليت عليكم رجالا . .

« لا أقول انهم خياركم ، ولكى أقول : انهم خير ممن هم شر منهم » !!

انه رجل يضع ذاته كلها فوق الميزان . . وان كل حركاته وكلماته وقراراته ، ومشاعره لتتحرك بقدر معلوم . !!

ويمضى ولاته الى اقطارهم ، ويسهرون على مسؤولياتهم في ولاء صادق . . تقودهم على الطريق وتثبت أقدامهم وخطاهم سيرة خليفتهم المعادل القديس . . هذه السيرة التي كان أريجها ينتشر انتشار الضياء وعبرها يغوح ويهب هبوب الرياح والبشريات . . !!

لقد راحوا يخطلون من كل تقصير يبدو من أحدهم .. وإذا
سولت لاحدهم نفسه ، شفاها من وسواسها بمجرد تذكر خليفته
القديس في حياته الشظفة ، ورقاعه البالية !!!

وراح الخليفة يواليهم برسائله ووصاياهم .. وصية من بعد
وصية وكتابا وراء كتاب ..

لنقرأ واحدا من هذه الكتب :

» .. أما بعد

فإن من ابتلى من أمر السلطان بشيء ، فقد ابتلى ببليّة
عظيمة !!

» فنسأل الله عافيته وعونه ..

» واني أدعوك أن تقف نفسك في شرك وعلايتك ، عند
الذي ترجو به النجاة من ربك ..

» تذكر ما سلف منك من خطأ فأصلحه ، قبل أن يتولى
إصلاحه غيرك ..

» ولا يمنعك من ذلك قول الناس ..

» وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحا في دينهم وأعراضهم .
» واستر كل عوراتهم ..

» وأملك زمام نفسك تجاههم إذا هويت ، وإذا غضبت !

* * *

وكما أحسن اختيار ولاته ، أحسن اختيار قضاته ، وأمناء بيوت

الملك .

وأمر هؤلاء وأولئك ، أن يختاروا معاونيهم وموظفيهم من الأمانة على دين الله ، ودنيا الناس .

وراحت أضواء قداسته وقدوته تتعالى وتتعاظم حتى كانت منارات هادية ، وسعت الدولة كلها والأمة جميعها بأنوارها الفاهرة وهداها الوثيق .

* * *

— وثانيا : الشورى ضرورة . .

وننتقل الآن الى المحور الثانى من محاور منهج الحاكم القديس واسلوبه ، لنشهد له تجاه الشورى موقفا غذا يمتاز بالعمق والشمول لقد أدرك ان كل ما يشيده من دنيا صالحة ، وعالم قويم ، لن يكون ثمة ضمان لاستمراره وانمائه سوى سياج منيع يصونه ويحميه وتمثل له هذا السياج فى توسيع قاعدة المسئولية حتى تنتظم أصحاب الحق فيها ، حاكمين ومحكومين .

والسبيل لذلك ، الشورى الخالصة الصادقة . . ويعت رأى عام ناصح ، وصادق ، وشجاع . ينقد الأخطاء ويسهم فى اصلاحها .

لم يكن عصره قد عرف النظم البرلمانية بعد . . ولكن ديموقراطية الحاكم مع ذلك كانت تتبين وتسطر كالشمس من خلال اسلوبه فى الحكم ، وطريقته فى اختيار ولاته وبطانته ، واستعداده لتقبل النقد ، وسماع كلمة الحق . وتطرته الى الأمة التى يحكمها ، ومدى ولائه لحقوقها وحرقاتها .

وبهذا المعيار والمسبار ، يقف « عمر بن عبد العزيز » في هذا
الجال وكأنه نسيج وحده !!

لقد احاط نفسه بالابرار الذين لا يخافون في الله لومة لائم ،
والذين لا يزيغون اقتناعهم ، ولا يلبسون الحق بالباطل ، وان قطعت
منهم الرقاب ..

جبعهم حوله ، يفكرون معه .. بل لقد كان يوصي بعضهم ان
يجلس تلقاءه وهو في مجلس الحكم ، ويضع عينيه المفتوحتين على
حديثه ، وحركاته فان نسي فقال كلمة ، او اتى حركة فيها شبهة من
خطأ ، نبهوه على الفور باشارة ، تعارف واياهم عليها ..

* * *

لقد آمن بأن الشورى ضرورة ، وليست ترفا .. وآمن بانها كلما
اتسعت قاعدتها ، استقام الحكم وشاع الحق ، واستوثق العدل ،
وعاش الناس كما يريد لهم دينهم وكما ولدتهم امهاتهم احرارا .

من أجل ذلك ، راح في سرعة الضوء يخلق رأيا عاما صادقا
امينا في طول الدولة وعرضها .

وراح يوسع الحاكمين والمحكومين وجها لوجه أمام مسئوليتهم
المشتركة ، بل الواحدة في محض الخطأ والتزام الصواب .

فيكتب للولاة قائلا :

« انكم تعدون الهارب من ظلم امامه عاصيا ..
« الا ان اولاهما بالمعصية الامام الظالم » !!

ثم يكتب الناس في شتى الاقاليم قائلا :

« اى عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب
والسنة ، فلا طاعة له عليكم . وقد صيرت امره اليكم ،
حتى يراجع الحق وهو نميم .. !! »

ويرسل الى احدى ولاته قائلا :

« قد كثر شاكوك .. وقل شاكروك .. فلما اعتدلت ،
واما اعتزلت » !!

هكذا رفع سلطة الشعب في وجه سلطة الحكم ، واسلم نواحي
ولاته وعماله للرأى العام يقودهم على طريق الحق طائعين او كارهين .
ولكى يدعم هذه السلطة ، فتح ابوابه على مصاريعها لكل شك
او مظلوم من حاكمه وواليه .. وارسل منشورا موجزا الى جميع
الاقطار :

« من ظلمه امامه مظلمة ، فلا اذن له على » ..

اى ليقترح على دارى ، غير منتظر اذنا ، وغير واقف بباب !!

* * *

وانه ليبهنا أسلوبه الفريد في بعث الرأى العام الشجاع ،
وتزكية حرية النقد ، وشد زنادها الى اقتصاء .

نفى سبيل ذلك نراه يرسم من بيت المال جوائز مغرية لكل من
يكشف عن خطأ ، ويهدى الى صواب .

ولنطالع في اجلال ، المنشور الذى كتبه ، ثم امر ان يقرأ على
الناس في المواسم والمحافل والمجامع :

« أما بعد .. »

غايما رجل قدم علينا في مظلمة نردها ، او امر يحيى الله
به حقا ، او يميت باطلا ، او يجيء بخير . فله منا ما بين
مائة دينار الى ثلاثمائة دينار . بقدر ما يتكاده في ذلك
من طول السفر وبعد الشقة » .. !

اليس عجبا هذا الذى نقرا ونرى .. ؟؟

الا ، وان أعجب من ذلك ، ان بطل هذا كله رجل لم تكن
بيئته ولا عصره بتقادرين على تشكيل بنائه ..
لكنها صبغة الله .. ومعجزة الاسلام .. !!

ولكم كان صادقا حين قال :

« لو وكلفني الله الى نفسى لكنت كغيرى » .. !!

لقد راح يضرب المثل الاسمى وانتدوة الباهرة في تقبل النقد ،
وهو الذى لم يعرف الناس له — خلال خلافته كلها — خطأ واحدا
يستأهل النقد والتفنيد ..

ولقد كانت الغبطة تملأ روحه حين يجد من عامة الناس من يقول
له : الى أين ؟ ولماذا ؟ !

هنالك يربت على كتفه ، ويدنيه منه ، ويقول له :

« زدنى يا أخى ، جزاك الله خيرا » !!

انه يلتبس الحكمة والصواب وراء السنة الصادقين حتى حين
يكون أحدهم طفلا .

قدم عليه وفد من المدينة يوما ، وتقدم من بينهم غلام صغير
ليحدث باسمهم ويعرض قضيتهم . فتعلاه أمير المؤمنين ، وقال له :
« يا بني : دع القول لمن هو أسن منك » .

ويبدو أن الغلام العربي الاصيل كان يحمل نبوغا مبكرا ، فقد
اجاب الخليفة من غوره :

« يا أمير المؤمنين ..

المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ..

« ولو كان الامر بالسن ، لكان في المسلمين من هو احق
بهذا الامر منك » .. !!

وفجأة ، تنثال دموع الغبطة والفرح من عيني القديس ، ويتهلل
وجهه ، ويهتف بالغلام :

« صدقت .. صدقت ..

« عظمى يا بني .. !! »

وان احد الناس ليقترح مسجد المدينة يوما شاهرا سيفه ،
يسب ويشتتم أمير المؤمنين على ملا من الناس ، وعلى مسمع من
المدينة وحاكمها ، فيعتقله الوالى .. ويرسل لامير المؤمنين بأمره
ويقول فى كتابه : « لقد هممت أن أقتله » .

ولا يكاد عمر يقرأ الرسالة حتى يجيب عليها غورا :

« أما والله ، لو أنك قتلته لقتلتك به » .. !!

ويقتحم مجلس الحكم ذات يوم رجل من عامة الناس ، رافعا
عقيرته فى وجه الخليفة بكلمات تثير غيظ الحليم .

فما يزيد أمير المؤمنين على أن يقول للرجل :
 «لعلك أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان، فأنا
 منك اليوم في الدنيا ما تتقاضاه منى غدا عند الله
 .. ولكن ، لا ..
 « قم عفا الله عنك » .. !!

* * *

ومن أذكى وأبلغ ما أداه — ابن عبد العزيز — في سبيل انهاض
 رأى عام أمين على مسئولياته وقادر عليها ... حسر ذلك المد الطاغى
 لدولة الشعر والشعراء التي كانت قائمة يومذاك .

لقد رأينا فيما سلف من حديث كيف اصطنع الامويون الشعراء
 لتزييف الحق ، وتمكين سلطانهم على حساب كل القيم والاخلاقيات ،
 حتى لقد كانوا عقبة كؤودا في سبيل معرفة الحقيقة ورؤيتها .. والآن
 يتقدم البطل القديس ، مطلقا رياح الحقيقة وراء هذا الضباب فتكنسه
 وتبدده ، وتترك آفاق المعرفة نظيفة يقينه مشرقة بنور الحق وحده ..

لقد وقف يخطب الناس فقال :

- « من أراد أن يصحبنا ، فليصحبنا بخمس أو ذليفارقنا ..
- * يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ..
- * ويعيننا على الخير بجهد ..
- * ويدلنا على ما لا نهتدى اليه من الخير ..
- * ولا يغتابن عندنا أحدا ..
- * ولا يعرضن لما لا يعننه .. »

ومن الدلالة الطريفة والبالغة ، ان جميع كتب التاريخ التى تنقل
هذا الخطاب ، تتبعه بقولها :

« فانفض عنه الشعراء والخطباء ،
وثبت معه الزهاد والفقهاء .. !! »

اجل .. فمعظم شعراء عصره ، وعلى راسهم — الاخطل ،
والفرزدق ، وجريير ، لم يكن لهم مع هذه الخمس ولا مع واحدة منها
رحم ولا قرابة .. !!

فهم اما مادحون بغير حق .. واما هاجون بغير حق ايضا .
وهم فى كلتا الحالتين يحرمون الراى العام رؤية الصدق بما
ينشرون من اذلال و بهتان .

والآن يجيئهم رجل عظيم ، لا حاجة به اليهم .
فليست له عداوات ، يحتاج للشعر فى تاجيجها ..
وليس له طموح يحتاج للشعر فى قرع الطبول له ..
وليس له شهوات يحتاج للشعر فى تزيينها ، ولا اخطاء يحتاجه
لتبويرها ..

وليس له بالسلطة ولع ، فيحتاج للشعر فى حمايتها واستبقائها .
ثم انه لا وقت لديه ، ولا وقت لدى أمته لهذا الهذر العريض
الذى ملأ به الشعراء ساحة العصر الاموى كله .

وهكذا جمع عزمه ، وطرده الشعراء عن بابيه ، ولم يعد احد منهم
يظفر بذرهم واحد من اموال الامة ، مكافأة على مدح او اتقاء لهجاء . !

وراح — أمير المؤمنين — يشرف بنفسه على امداد الراى العام بكل الصدق ، وبكل الحقيقة عن طريق منشوراته التى كان يرسلها للولاة ، ويبعث بها الى شتى الاقطار .

ولقد بدأ بدحر تلك الفاحشة التى كان الحكم الاموى يمارسها فى سفالة . وهى لعن الامام على كرم الله وجهه على المنابر .
وأمر أن يقرأ الخطباء مكان الكلمات الاثمة . . . تلك الايات الطاهرة :

❖ « ربنا اغفر لنا ، ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا انك رؤوف رحيم »

❖ « ان الله يامر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »

* * *

لقد وضع الكذب ، ورغع الصدق . .

ودحر الباطل ، وآزر الحق . .

وكان ذلك اسهاما فعالا فى انهاض راى عام حنيف وامين . .

وامير المؤمنين « عمر » لا يدرك عظمة الشورى وقيمتها ادراك حاكم عادل صالح فحسب . . بل انه كذلك ليدرك جوهرها ادراك فيلسوف .

فهو لا يرى فيها مجرد تنظيم عادل لعلاقة السلطة بالامة، وتبادل المسئولية تجاه الدولة والمجتمع . . بل يمضى فى اتجاه التحليل النهائى

لجواهرها ووظيفتها ، ليرى ذلك متمثلا في ظفر كل فرد من الناس بحقه في اختيار اقتناعه . . . وحق هذا الاقتناع في التعبير عن نفسه . في غير زيف أو غموض .

ذلك أن الناس حين يزيفون اقتناعهم بسبب رغبة ، أو رهبة ، فإنه يستحيل في نفس الوقت ، ولتفس السبب معرفة آرائهم . ومادامت الآراء الصادقة هي مادة الشورى واداتها ، فإن اختفاء هذه الآراء إذن ، يعتبر وادا للشورى والفاء لمهتها .

وهنا تطل علينا عظمة القديس « عمر » وهو يضع اقتناع الناس — حتى حين يخالفهم ويخالفونه — موضع القبول والتقدير .

والوقائع التي تحكى ولاء الوثيق لحرمة الاقتناع تزدهم بها الشهور التسعة والعشرون التي قضاه خليفة واماما . . . لكننا نختار منها هذه الواقعة التي تكاد تعطينا التعبير النهائي لهذا الولاء .

لعلنا نعرف الكثير عن الخوارج الذين انشقوا على الامام على كرم الله وجهه ، حتى اغتاله واحد منهم . . . هؤلاء الذين تحولوا بعد ذلك ، وخلال العصر الاموى الى فرق كثيرة ، حملت سيوفها وخاضت ضد الدولة معارك كثرا ذهب منهم خلالها الوف الضحايا .

وبالإضافة الى نشاطها المسلح هذا ، فقد كان لبعضها آراء وعقائد لا يزيكها قرآن ولا سنة .

ومع ذلك كله ، نرى الخليفة العابد الاواب لا ينسى حتى في فتهمه هذه ، حقهم في أن يكون لهم اقتناعهم ، ثم لا يتسى واجبه في احترام هذا الحق لهم ، وواجبه في اعطائهم فرصة التعبير عن رأيهم بصوت

مرتفع ، مادام نشناطهم لا يتحول الى عمل ارهابى يستهدف سفك دماء
الاخرين الذين يخالفونهم فى اعتقادهم واقتناعهم .

بل اننا سنراه يرى بحمصافته الباهرة ، ان السبيل الامثل
لصرفهم عن التآمر والارهاب ، هو رفع الغطاء عن البخار المحبوس ،
وتمكين الراى الحبيس المكبوت من الانطلاق ، قبل ان يتحول داخل
نفس صاحبه المقهورة الى حقد موتور ، وقذيفة رعناء .. !!

وهكذا ، لا تكاد احدى تلك الفرق تتحرك فى الايام الاولى لخلافته
مستأنفة تمرداها المسلح ، حتى يرسل الى زعيمها هذا الكتاب :

« اما بعد ... »

« فقد بلغنى انك خرجت غضبا لله ولرسوله .. ولست

اولى بذلك منى .. »

« فهل انظرك .. »

« فان يكن الحق معنا ، تدخل فيه ، وان يكن الحق معك ،

نراجع انفسنا وننظر فى امرنا .. !! »

ويقرا الزعيم التأثير كلمات « القديس » ليخجل من نفسه ، ويلقى
سلاحه . ويرسل مبعوثين الى عاصمة الخلافة ، يجريان مع الخليفة
حوارا حول ما بينهما من قضايا وخلاف . ويجرى الحوار بينهما رائعا ،
صادعا ، تتجلى خلاله موهبة « ابن عبد العزيز » فى رؤية الحقيقة ،
وتوجيه المنطق ، وامتلاك الاغثدة والعقول ..

ثم تكون عاقبة هذا الموقف العظيم ، ان تلقى تلك الفرقة
التمردة سلاحها ، بعد ما تبينت انها فى عصر رجل جديد ينتمى لعصر

النبوة والوحى .. رجل يخجل الشيطان نفسه ان يشغب عليه ، او يتحداه .. !!

على ان لهذه الواقعة — رغم دلالتها المفيضة — مثيلا آخر يكمل الصورة التى ترسم ولاء هذا الخليفة العظيم لحرية الراى وحسرة الاقتناع .

فهو على الرغم من معرفته بفساد الكثير من منطق الخوارج وحججهم ، لم ير القوة قط سبيلا لدحض هذا المنطق واسكاته — بل رأى ان قيام منطق اهدى ، وحجة اوضح واصدق ، هو السبيل لاطهار الحق واخماد الباطل .

وهكذا نلتقى به ، وقد قامت فرقة اخرى من الخوارج — هم « حرورية الموصل » — يسيحون فى البلاد ناشرين آراءهم وافكارهم . ويكتب اليه حاكم الموصل ، يستأذنه فى قمعهم واسكاتهم ..

اقول : نلتقى بأمر المؤمنين يجيب واليه فيقول :
« اذا راوا ان يسيحوا فى البلاد فى غير اذى لأهل الذمة ..
وفى غير اذى للامة .. فليذهبوا حيث شاءوا ..
« وان نالوا أحدا من المسلمين ، او من أهل الذمة بسوء ،
فحاكمهم الى الله .. »

بالله ، ما اعدله .. وما أروعه .. !!
انه لا يرى لنفسه حقا — اى حق — فى الحجر على آراء الآخرين ولا الوصاية عليها .

وهو كحاكم — لا يرى لنفسه أى حق فى التدخل الا حين يواجهه خطر مسلح يتهدد سلامة الدولة والامة .

اما دون ذلك ، فلكل رأى حرمة ، ولكل اقتناع حقه وحرية .
وهذا النهج الراشد المسديد ، هو الذى مكن للشورى فى عهده تمكينا تكاد تتقطع دون بلوغه انفس كثير من الديموقراطيات ..

ولطالما قالوا له يومئذ : ان هؤلاء الخوارج ينشرون بين الناس افكارا زائفة ، ويلبسون الحق بالباطل ، وان تركهم يجوبون البلاد بعقائدهم هذه ، عمل ينذر بسوء مآب .

فلا يزيد القديس العادل على أن يذكر محدثيه ومحرضيه بآيات القرآن الكريم التى نهى الله فيها رسوله عن أن يسوس ضمائر الناس بالقهر والبطش :

« أمانت تكرة الناس حتى يكونوا مؤمنين » .. ؟

« وما أنت عليهم بجبار » ..

« انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » .

ولقد وقفت العواقب بجانبه ، واثبتت صدق رايه ونكاء تقديره :
فالخوارج الذين لم يضعوا سلاحهم يوما واحدا منذ حكم معاوية ، حتى سليمان بن عبد الملك ، والذين لم تزدهم كثرة ضحاياهم الا امعانا فى التحدى وضراوة فى القتال .. نراهم فى عصر هذا القديس الجليل يغمدون سيوفهم ، وينسون طوال عهد خلافته كل ما لهم عند الامويين من ترات ، وثرات ..

— وثالثا : المال وديعة ..

وأمام المشكلات الاقتصادية — مشكلات الدخل والتوزيع — التي تحير الدول في كل العصور والازمان ، لم تأخذ « عمر » حيرة ، ولم تمعضله أزمة .

ذلك أنه مؤمن بأن الحق والعدل قادران على تدبير أمرهما أعظم وأهدى مما تدبر المع عبقریات التنظيم والاقتصاد .

والدولة المسلمة — يومئذ — لم يكن ينقصها المال .. انها كان ينقصها اتباع الحق في تقاضيه .. واتباع العدل في توزيعه ..

وقبل هذين ، معث حرمة الاموال العامة وقداستها في ضمير الدولة ، بكل مسئوليتها ... وفي ضمير الامة ، بكل أفرادها ..

أن موقفه من الثروة القومية ، يبدأ من ايمانه بقول الله تعالى :
« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

فمصادر الانتاج ، والانتاج ، والثروة .. كل ذلك اذن وديعة الله عند الناس .. دولا ، وأما ، وجماعات ، وأفرادا ..

ولودائع الله هذه حرمتها التي تنأى بها عن التلف ، والسرف ، والبغى ، والاحتكار .

فإذا اكتسبت هذه الودائع صفة أخرى ووصفا آخر ، فصارت أموالا عامة ، فإن حرمتها وقداستها تربوان وتزدادان .

ذلك أن معنى كونها « أموالا عامة » انها حقوق شائعة وثابتة لكل ائراد الامة .. لكل أرملة فيها وكل يتيم .. لكل مسن وطفل ، ورضيع .. لكل فقير ، وعاجز ، ومريض ..

وهى بهذه المثابة . مثابة أنها ، أولا : ودائع الله ، وثانيا : حق الناس ، جميع الناس . . تتمتع بحرمة بالغة وقداسة وثقى .
و « ابن عبد العزيز » يرى نفسه مسئولا عن اعلان هذه الحرمة وصيانة هذا الحق .

وانه ليعبر عن ذلك فى كلماته الفاصلة :
« انما انا حجيح المسلمين فى مالهم » !!

كما يعبر بسلوكه تجاهها تعبيراً يبهز الابواب . .
انه يرسل خادمه يوما ليسخن له بعض الماء كى يتوضأ به فى يوم شات زهير .

ويعود الخادم مسرعا بالماء الدافىء ، فيسأله الخليفة : اين دفأته بهذه السرعة . . ؟
فيجيب الخادم : فى مطابخ المسلمين . .

وكان « عمر » قد توسع فى انشاء مطابخ عامة للناس ينفق عليها من بيت المال . .

فغتاب الخليفة خادمه على صنيعه ، ورفض ان يمس الماء جسده حتى يذهب الخادم الى القائم على هذه المطابخ بئس تسخين هذا القدر الضحل جدا من الماء . . !!!

وانا لنعرف تلك الواقعة المتواترة ، حين كان يباشر امور الدولة ليلا على مصباح يؤخذ زيتة من بيت المال ، فاذا عرض له أثناء ذلك طارئ شخصى — واو كان لا يستغرق سوى لحظات — فانه يطفىء

مصباح بيت المال ، ويوقد شمعته أو مصباحه ، حتى ينتهى من ذلك
الطارىء .. !!

ولقد يرى البعض فى هذا المسلك نوعا من التبرمت المغرق ..
ولقد يرون فى اعطاء هذه الشكليات العابرة كل هذا الاهتمام
انورع من رئيس دولة عظمى ، كالدولة التى كان يحكمها — ابن عبد
العزيز — امرا غير مأنوف .. وربما غير مستساغ ..

غير انهم حين يفكرون على هذا النحو يفوتهم أن الذى كان يحرك
اهتمام الخليفة وورعه ، لم تكن تلك الشكليات ذاتها .
انما هو المعنى الكبير الذى يملأ ضميره ، ويشكل سلوكه تجاه
الاموال العامة وحرمتها وقداستها .

وبعد ذلك يستوى أن يكون هذا المال . عدل درهم من زيت
مصباح .. أو ملء حجرة فضة وذهبا .. !!

انه يذكر ، ويذكر الناس دائما بالآية الكريمة :

« ومن يغفل ، يات بما غل يوم القيامة » !!

والغفلول عنده فى أحقر الاشياء ، مثلما هو فى أكثرها وأخطرها .
وفيما يستأثر به لنفسه ، مثلما هو فيها يجود به على غيره .
بل حتى الهدايا ، رآها غلولا ، أو شيئا يشبه الغلول .

جاءته يوما هدية ، فاعتذر عنها .. فقيل له : أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ..

فأجاب قائلا :

« لقد كانت للرسول هدية ، ولكنها لنا رشوة » !!

* * *

ان موقفه من اموال الامة لعجيب . ثم عجيب . . !!
وان لها في غواده الذكى التقى لحرمة تضاهى حرمة الايمان
ذاته ، وحرمة التوحيد . . !!
يطلب منه أحد ولاته الاذن بمزيد من الشموع التى كانت دار
الامارة تضاء بها ، ويضاء بها للامير وهو في طريقه الى المسجد لصلاة
العشاء والفجر .

فيجيبه الخليفة بكتابه هذا :
« لقد عهدتك يا ابن أم حزم ، قبل أن تكون واليا ، تخرج
من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح . .
«ولعمري ، لانت يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان في فتائل
اهلك ما يغنيك » !!!
ويكتب اليه وال آخر ، يطلب المزيد من الاقلام وورق الكتابة ،
فيجيبه الخليفة أيضا :
« اذا جاءك كتابى هذا ، غارق القلم ، واجمع الخط ،
واجعل الحوائج الكثيرة في الصفحة الواحدة . .
« فانه لا حاجة للمسلمين في فضل قول اضر ببيت
مالهم . . » !!

هنا بيت القصيد . . « اضر ببيت مالهم » !!
فالمشكلة ليست مشكلة قليل او كثير من الشموع والاقلام
والاوزاق . . فما من دولة يعجزها أن تملأ أرضها شموعا وأقلاما وورقا
اتها المسألة في وعى « الحاكم القديس » هى حرمة هذه الاموال

وقد استهتأ .. هى تجنب التفريط والافراط فيها .. هى درجة الولاء
للمسؤولية رعايتها وحفظها .. وبهذا المعيار يصبح كل عبث بها
مرفوضا مهما تكن ضالة مقدار هـ .

ذلك أن الاسراف الذى يتمثل اليوم فى شمعة او قلم .. سيتمثل
غدا — اذا استهين بأمره — غيما هو أَوْخَم عاقبة وأسوأ مصيرا .
* * *

هكذا ارسى لحرمة الاموال قواعد راسخة من الاجلال والتقديس
ونعود الى موقفه من « مشكلة الدخل والتوزيع » ..
قلنا : ان الدولة يومها لم يكن ينقصها الثراء .. انما كان ينقصها
تقصى الحق فى جمعه .. والعدل فى توزيعه ..

ففيما يتعلق بالدخل .. نرى الخلفاء قبله ، وقد أرقق الترف
والسرف ميزانية الدولة ، راحوا يعوضون ذلك بجمع المال بوسائل
غير مشروعة ، وضرائب غير عادلة .

فاهل الكتاب الذين يعتنقون الاسلام ، يضع عنهم الدين ضريبة
الجزية غورا .. ولكن الدولة الاموية تأبى فى ذلك حكم الاسلام ،
وتبقى الضريبة فوق كواهل الذين أسلموا ، مبررة ذلك بانهم انما
يسلمون فرارا من الضريبة .. !!

ويجىء الخليفة العادل فيرفض هذا التبرير الزائف ، ويعلن أن
فرح الاسلام بفرد واحد يدخل دائرة نوره وهدهداه ، خير من ملء الارض
مالا وذهبا .

ويطلق أمير المؤمنين كلماته المضيئة هذه :
« ان الله بعث « محمدا » هاديا ولم يبعثه جابيا » !!

ولقد ارسل اليه واليه على العراق « عدى بن اوطاة » : يقول
« ان الناس قد دخلوا في الاسلام اغواجا ، حتى خشيت ان يقل
الخراج » ...

فيجيبه الخليفة المقسط العظيم :
« والله ، لوددت ان الناس كلهم يسلمون ، حتى نكون
انا وانت حراثين نأكل من كسب أيدينا . !!! »
كذلك راح يتتبع كل الضرائب النى كان الخلفاء السابقون قد
فرضوها على الناس فألغاها جميعها .
بل وحتى الضرائب المشروعة ، مثل زكاة الزروع والثمار ، كان
يضعها عن الناس عندما تنزل بمحاصيلهم جوائح ، أو تتعرض لبوار.
ها هو ذا يكتب لواليه على اليمن « عروة بن محمد » :
« اما بعد ... »

« غقد كتبت الى تذكر أنك قدمت اليمن ، فوجدت على
أهلها ضريبة من الخراج ثابتة في أعناقهم كالجزية يؤدونها
على كل مال .. ان أخصبوا ، أو أجذبوا ... ان حيوا ،
أو ماتوا . » فسبحان الله رب العالمين !! ثم سبحان الله
رب العالمين !!

« اذا أتاك كتابي هذا ، فدع ما تنكره من الباطل ، الى ما
تعرفه من الحق ... »

« واعلم أنك ان لم ترغع الى من جميع اليمن الا حفنة من
كهم^(١) غقد علم الله أنى ساكون بها مسرورا . ما دام

(١) الكتم : نبات ينخضب به الشعر ، ويصنع منه مداد للكتابة .

في ذلك ابقاء على الحق والعدل « . . !!!

ولعل بعضنا يأخذه العجب . . فبينما كان المتوقع منا ونحن نتحدث عن « الدخل » ان نشير الى اكتشاف مصادر جديدة تزيده ، وموارد ثرة تضاعفه وتنميه ، اذا بنا نطرى سياسة الخليفة تجاه الدخل العام ، لانه الغى الكثير من تلك المصادر والموارد . . ؟!

ولكن ، ما حيلتنا ، وهذه فلسفة القديس المبارك الميمون « ابن عبد العزيز » . . ؟!

ان المسألة عنده ليست بمسألة كثرة . . بل مسألة وفرة . .
والوفرة ، تكون في بركة الحلال المشروع ، لا في كثرة الحرام
المغتصب .

ولعل من واجبنا قبل ان نغادر هذه النقطة من الحديث ، ان
نقول لبعض المؤرخين الذين يردون اضطراب مالية الدولة بعد موت
أمير المؤمنين « عمر » الى سياسته الضرائبية هذه . .
من واجبنا ان نقول لهم : اغلب الظن انكم مخطئون . .

فلقد سارت الامور في عهده كله على اتم نسق . ولم تكن تنذر
بأى عجز أو اضطراب . بل كانت على العكس من ذلك ترهص وتبشر
بمزيد من النماء والرخاء والاستقرار .

انما اضطربت فيما بعد ، حين غاب « البطل » عن مسرح العدالة
والحق . . وعاد الترف والسرف والفساد ، وسياسة السطو مرة
أخرى تعبت وتمرح ، بعد أن رحل الحارس اليقظ ، والحاكم القديس !

على أن «الخليفة» حين الغى الضرائب الظالمة ، أتاح في نفس الوقت موردا ثرا للدولة ، حين رد اليها جميع الارض والثروة التي كانت تحت أيدي الامراء .

وموردا آخر ، اعتبره أمير المؤمنين من أعظم مصادر الدخل واثراها .. ذلكم هو وضع كل درهم في مكانه وضرورته .. وتحريم كل تبذير ، وتجريم كل سرف .

أجل .. لقد كان — ولا يزال — وضع المال في مكانه الصحيح ، وداخل ضرورته الملحة وحدها ، خير مورد وأبقى مصدر ..

ولقد التزم « عمر » هذا النهج التزاما يكاد يكون مطلقا مع نفسه ومع أهله ، ومع ولاته ، ومع ذوى قرباه ، وأصدقائه ، والناس اجمعين .

ها هو ذا احد المقربين اليه ، الاثريين لديه « عنبسة بن سعيد » يذهب اليه يوما ، يسأله حاجة لنفسه .

فلنطالع جواب الخليفة له :

« يا عنبسة ..

« ان يكن ما لك الذي عندك حلالا ، فهو كافيك .

« وان يكن حراما ، فلا تضيفن اليه حراما جديدا ..

« أخبرنى يا عنبسة ..

أحتاج أنت ؟ لا ..

أفعليك دين ؟ لا ..

« انن ، فكيف تطمع في أن اعمد الى مال الله ، فأعطيكه

في غير حاجة .. وادع فقراء المسلمين ؟!
« لو كنت غارما ، لأديت عنك غرمك .. أو محتاجا لأمرت
لك بما يصلح شأنك ..
« فليكن لك في مالك غناء ..
واتق الله ، وانظر من أين جمعته ، وحاسب نفسك قبل
أن يحاسبك أسرع الحاسبين » ... !!!

ان هذا الذي قاله لصديقه الحميم « عنيسة » كان يقوله لكل من
يسأله ما ليس له بحق .. على أن هذا الذي هو حق في تقديره ، لم
يكن يتمثل عنده الا في ضرورات العيش والحياة .
وهكذا أتيج له ان يحول شهقات البائسين الى بسمات متهالة ،
وغرح غامر ، دون أن يحصل السراة الى طبقة بديلة للبائسين ..
ان كل ما صنعه بهم أنه أخذ منهم ترفهم وتخمتهم ، ثم تركهم
يحيون كراما متواضعين ... !!

* * *

وهنا ينقلنا الحديث من الدخل ، الى التوزيع .. فكيف راح
الحاكم القديس يوزع أموال الامة ، وأين كان يضعها .. ؟؟
لقد رد المال الى وظيفته الحقيقية ، الى دوره الاصيل ومسؤوليته
الاولى في خدمة الامة وتغطية احتياجاتها :
لقد بدأ . فرسم حدود الكفالة الشاملة التي ستنهض بها الدولة
تجاه مواطنيها جميعا فردا ، فردا .. وحدد بالتالى مسؤولية بيت المال
تجاه تغطية هذه الكفالة كلها :

نرى ذلك فى كتابه الى ولاته :

« لا بد لكل مسلم من :

* مسكن يأوى اليه ..

* وخادم يكفيه مهنته ..

* وفرس يجاهد عليه عدوه ..

* واثاث فى بيته ..

» فوغروا ذلك كله ..

» ومن كان غارما ، فاقضوا عنه دينه « .. !!!

والتعبير بكلمة « مسلم » هنا .. لا تعنى قصر هذه المزايا بل الحقوق على المسلمين وحدهم . انما استعمل هذا الوصف لقبته لا اكثر .. ثم كانت هذه المزايا والحقوق من حق المواطنين جميعا — مسلمين وأهل كتاب ...

وامر الخليفة ولاته ان يبدؤا بتغطية حاجات اقطارهم . وما غاض وبقي يرسل الى الخزائنة العامة .. ومن قصر دخل اقليمه عن تغطية حاجات اهله ، اهده الخليفة بما يقطى عجزه :

« استوعب الخراج واحرز في غير ظلم ..

» فان يك كافيا للناس ، فحسبنا .. والا فاكذب الى حتى

أبعث اليك من المال ما توغر به للناس اعطياتهم « .. !!

* * *

وراح « المبارك الميمون » ينشئ في طول البلاد وعرضها دور

الضيافة ، يأوى اليها المسافرين وابناء السبيل ..

ومضى ، يرفع مستوى الاجور الضعيفة ..

وكفل كل حاجات العلماء والفقهاء ليتفرغوا لعلومهم ورسالتهم
دون أن ينتظروا من أيدي الناس اجرا ..

وسخا على ولاته برواتب كبيرة ، حتى يتفرغوا لمهامهم ، وحتى
لا تضعف نفوسهم أمام اغراء الحرام ... !!

وعلى طول النولة وعرضها كذلك ، أمر لكل اعمى بقائد يقوده
ويقضى له اموره على حساب الدولة ..

ولكل مريض او مريضين بخادم ، على حساب الدولة ..

وامر ولاته باحصاء جميع الغارمين ، فغضى عنهم ديونهم ..

وافتدى اسرى المسلمين جميعا ، واغدى عليهم العطاء ..

وكفل اليتامى الذين لا عائل لهم في جميع اقطار دولته العريضة
المتراصة ..

وكما فعل جده العظيم — عمر بن الخطاب — من قبل ، فعل هو
أيضا ، فأمر أن يفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته ، وليس
بعد فطامه ، حتى لا تتعجل الامهات فطام الرضعاء فيتعثر نموهم ،
وتضمحل قواهم .. !!

ومن أجل الا يتحول عطاء الدولة الى فرصة للطامعين ، منع أن
يجمع أحد بين عطاءين ...

وحرّم على جميع العاملين والموظفين ، الجمع بين راتبين مهما
تكن الاسباب .

* * *

وهكذا تقسط الناس جميعا في عهده العظيم ما افاءه الله عليهم
من خير ورزق .

وانا لنكاد تذهل امام ذلك الاجماع التاريخى الذى يحدثنا عن
اختفاء الفقر والفقراء فى عهد القديس الورع ، عمر بن عبد العزيز ،
حتى لقد كان الاغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيرا يأخذها ،
ويبسط يده اليها . . . !!!

ذلك أن عدل « ابن عبد العزيز » لم يكف الناس حاجاتهم فحسب
بل وملاهم شعورا بالكرامة والقناعة ، فلم تعد تستهويهم الصدقات
مهما تكن كبيرة وكثيرة ، بعد أن أغناهم الله من فضله بالحق ، وبالعدل ،
وبعبده الصالح « عمر بن عبد العزيز » !!!

* * *

— ورابعا : وحدة الأمة وسلامها . .

كان الخليفة الصالح قد ورث مجتمعا ممزقا يتربص بعضه ببعض
الدوائر . . ويتربص كله بالدولة الدوائر . . !!

فخلفاء بنى أمية ، كانوا يتوسلون لدعم نفوذهم وسلطانهم بشحن
العصبية والقبلية والاقليمية ، فيختص أحدهم بعطفه القيسية ،
ويختص آخر اليمانية . . ويميز أحدهم أهل الشام . . ويميز آخر
أهل العراق .

وانتقلت العدوى من الخلفاء والولاة الى القبائل وزعمائها ،
فظهر من ينادى بسيادة أهل الحضر — وفى مواجعتهم ، ظهر من ينادى
بسيادة أهل البادية .

كذلك كان الخلفاء الامويون قد جنحوا للهبوط بمكانة المسلمين
من غير العرب — أولئك الذين عرفوا بأنسم « الموالى » ففرضوا عليهم

الجزية ظلما ، وحرموهم الحقوق التي يكفلها لهم الاسلام ، على الرغم من بلائهم العظيم ، وبزوغ صفوة منهم حملت لواء الاسلام عاليا في كل مجال .

كذلك كان هناك الفرق الكثيرة من شيعة وخوارج ومعتزلة منهم من يحمل السلاح في وجه الدولة وفي وجه خصومه في الرأي ، ومنهم من لا يحمل السلاح ولكنه يحمل الكلمة المسمومة . . ومنهم من يلتزم حدود المنطق والحجج .

ورث « القديس » المجتمع على هذا التمزق والتشتت ، غنغخ فيه من روحه الطاهرة انظافرة نفخة مباركة نفت عنه في لحظة كل هذه الخبائث . . وطهرت لا شكل المجتمع وعلاقاته الظاهرة فحسب ، بل وضميره وروحه أيضا . فشهد مجتمع الاسلام في أيامه اخاء وثيق التراحم . . واخذ كل حقه . . وقنع كل بحقه . . !!

فأما عن الخوارج ، فقد رأينا كيف أسكتهم بالحجة والبرهان .
وأما الموالي ، فقد وضع عنهم أصرهم ، وصحح وضعهم .
وأما النزعة القبلية والاقليمية ، فقد طواها بيمينه .

ولم يعد هناك فيسيون ويمنيون . . ولا عراقيون وشاميون . .
ولا عرب وموال .

لقد عادت رحم الاسلام تنتظم جميع أبنائه كالعقد المنظوم ، وسيطرت من جديد روحه العظيمة المتمثلة في قول الله تعالى :

« انما المؤمنون اخوة »

* * *

ولم يقف تصور « ابن عبد العزيز » لوحدة الامة عند هذه الحدود وحدها . . بل امتد ايمانه بالوحدة وفهمه لها الى وضع الاقليات فأكد دمجها في جسم المجتمع المسلم ، وصان لها كل حقوقها .

ولقد رأينا في رسالة هرت بنا من قبل ، أرسلها لاحد ولاته بشأن بعض الخوارج فقال له :

« ان ساروا في الارض دون اساءة لاهل الذمة ، وللأمة ،
فدعهم » . .

وفي كتب كثيرة لولاته ، نراه يؤكد على الوصاية بأهل الذمة ، اولئك الذين اسماهم الاسلام — اهل الذمة — توكيدا لما في ذمة المسلمين لهم من عهد وميثاق . . . !!

لقد كانوا الى يوم استخلافه ، يلاقون الكثير من العنت . ويقبعون تحت وطأة ضرائب ظالمة . . فما كاد يتولى امر الامة حتى اصدر اوامره الحازمة بالا يؤخذ منهم سوى الضريبة التي شرعها الاسلام لقاء توفير الأمن لهم .

وان موقفه من قضية « كنيسة يوحنا » بدمشق لمثل رائع وباهر على عمله العظيم والنبيل لدعم الامة كامة ، بصرف النظر عن اختلاف الدين والجنس والنون فيها . . !

كان « الوليد بن عبد الملك » قد هدم جزءا كبيرا من كنيسة يوحنا ، ليقيم عليه امداد المسجد الاموي المشيد .

وحين ولى « عمر بن عبد العزيز » الخلافة . شكا اليه نصارى دمشق ما حدث لكنيستهم .

تري ، ما ذا يصنع امير المؤمنين ؟
ان الجزء الذى تهدم من الكنيسة قد صار مسجدا .
وان اقصى ما يستطيعه حاكم عادل فى مثل هذا الموقف ان يعطى
تعويضا سخيا ، او أرضا بديلة .
لكن « ابن عبد العزيز » يتعامل مع العدل والحق بأسلوب مختلف
عن أساليبنا . . انه أسلوب قديس جليل !!
وهكذا اصدر امره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد ،
واعادة الارض التى اتيتم عليها الى الكنيسة . . !!
ودارت الارض بعلماء دمشق وفقهائها ، غارسلوا وغدهم لانتاع
امير المؤمنين بالعدل عن قراره .
ولكن امير المؤمنين ، اصدر امرا جديدا حدد فيه اليوم بل الساعة
التى يجب ان تتم فيها عملية الهدم والتسليم . . !!
ولم يجد العلماء سبيلا لانتقاذ المسجد سوى ان يفاوضوا زعماء
الكنيسة فى دمشق ، ويعقدوا معهم اتفاقا يرضونه ، ويتنازلوا بموجبه
عن الجزء المأخوذ من كنيستهم . ثم يذهب وغد من الفريقين لابلأغ
الخليفة نبأ الاتفاق . فيحمد الله عليه ، ثم يقره ويرضاه . . !!

* * *

بم اذن نفسر ذلك الموقف الذى اتخذه من بعض اهل الكتاب من
النصارى . حين امر ان يعاملوا معاملة خاصة فيها تضيق عليهم ،
واخراج لهم . . ؟؟

اننا في ضوء موقفه العام الذي رايناه ، لا نرى لموقفه الطارىء هذا تفسيراً الا ان يكون قد دعاه اليه سلوك بعض اولئك الذين عملوا كطابور خامس للامبراطورية الرومانية التي كانت تشن باسم الصليب — حروبا عدوانية على دولة الاسلام .

يزكى ذلك — في رايانا — تلك الرسالة التي حملت اوامره بشأن النصرارى . فقد ركزت اهتمامها على مصادرة ما يوجد في دورهم من سلاح . . مما يومية الى وجود مؤامرة كانوا يهيمون بها . على انه في موقفه من هؤلاء ، لم يامر باتخاذ اى اجراء عنيف .

كل الذى امر به ان يميزوا بلباسهم الخاص . . وحتى هذا الاجراء يشير الى الريبة التي داخلت نفسه تجاههم ، فأراد ان يميزهم حتى يكون هذا التمييز سبيلا لكشفهم .

فاذا جاوزنا هذه الفئة التي غقدت ولاءها للدولة وللمجتمع ، وجدنا موقفه من المسيحيين عامة موقف الحارس الامين لحقوقهم ولعهودهم ولكراماتهم .

لقد اثار موقفه من الاديان ومن حقوق الاقليات في دولته الراشدة انبهار واعجاب العالم الخارجى من حوله ، حتى ان امبراطور الروم « ليو الثالث » وقد كان خصما عنيدا لدولة الاسلام ، لا يكاد يبلغه نعيما بعد نبأ وفاة امير المؤمنين حتى يبكى بكاء مرا ، اذهل حاشيته واساقفته ، فسأله في ذلك ، فأجابهم بكلمات تعتبر من اصدق واجمع مناقيل في تأبين امير المؤمنين :

لقد قال :

« مات والله ملك عادل ، ليس لعدله مثل . . !! »

« وليس ينبغي أن يعجب الناس لراهب ترك الدنيا ليعبد
الله في صومعته .

« انما انعجب لهذا الذى صارت الدنيا تحت قدميه غزهد
فيها .. !!

« ولقد كان حريا أن يعجل به ، فأهل الخير لا يلبثون
مع أهل الشر الا قليلا » . . . !!

أفكان هذا الامراطور ليشهد فيه هذه الشهادة لو عرف عنه
أدنى اضطهاد أو انتقاص لحقوق أهل الكتاب في عهده . . ؟؟

بل هل كان كبير أساقفة الرومان سيخف مسرعا حين علم بمرض
ال خليفة ، ليقيم الى جواره يطببه ويعالجه . . ؟؟

* * *

ونعود للعمل الذى عمله أمير المؤمنين من أجل وحدة الأمة ،
لنرى كيف كان في نفس الوقت عملا في سبيل سلامها الداخلى .

فالسلم الداخلى ، انما يتوفر بالقدر الذى يتجمع فيه شمل الأمة
وتتآخى أرواح بنيها .

ولقد انعم الله عليه وعلى أمته بما تمنى من وحدة الاسلام . .
فماذا عن السلم الخارجى ووضع أوزار الحروب التى كانت
مشبوبة الاوار خارج الحدود . . ؟

لقد رأيناها يبدأ في الساعات الاولى من خلافته باصدار امره
للجيش الذى أنهكه حصار القسطنطينية بالعودة .

ثم رأيناها يفقدى جميع الاسرى على كثرتهم ويردهم الى ديارهم
وطنتهم .

ثم نراه يضع حدا لكل الاعمال العسكرية التى كانت تقوم بها الدولة . . ويعلن أن الاسلام قد صار عزيزا منيعا بما تم له من فتوح ، وأن على جيش الدولة ألا يتحرك بعد اليوم لقتال الا دفاعا عن حدود الدولة اذا هوجمت ، وعن سلامة الامة اذا تعرضت للاخطار .

واستعاض عن زحف الجيوش ، بكتبه التى ارسلها الى ملوك الهند وحكام مقاطعاتها ، يدعوهم الى الاسلام ، فاسلم اكثرهم متأثرين بما كان قد ترامى اليهم من انباء ورعه ، وزهده ، وعظمته وتقاه . . كذلك كتب الى البربر ، فى افريقية . . يدعوهم الى الاسلام فدخلوا غيه افواجا .

وكتب الى ملوك ما وراء النهر ، فاسلم اكثرهم ورفعوا راية الاسلام . .

اليس رجلا مباركا ذلك القديس . . ؟؟

* * *

— وخامسا : اسلوبه فى التنفيذ . .

ماذا كانت الامنة ستفيد من ورعه وزهده وتقاه وعدله ، لو لم تكن كفائته فى التنفيذ موازية لكفائته فى حمل المسؤولية والاخلاص لها . . ؟؟

هنا نلتقى بجانب من أبهى وأغنى وأقوى جوانب شخصية ذلك القديس الفطن الحازم الاريب . . نلتقى به صاحبا يقظان . .

ان كل ساعات اليوم الاربع والعشرين مندورة لمسؤولياته . . ليس منها سوى الوقت الذى تستغرقه صلاته وعبادته . .

والساعتين أو الثلاث التى يمنحها لنومه وراحته ..
أما بعد ذلك ، فلا وقت لديه الا لمسؤوليته المقدسة .
وله أسلوب غريد فى انجاز هذه المسؤولية وتنفيذ منهاجها ..
غالبين ، والحزم .. والاثابة ، والحسم .. والاشراف العميم ،
واللامركزية .. والطاولة ، واليقظة .. كل هذه تعمل « مجتمعة » لا
« مختلطة » — فى اتساق مذك وتكامل عجيب .. !!
يبلغ به التعب يوما أشده ، فيسأله بعض خاصته أن يريح نفسه
فيقول :
« ومن يجزى عنى عمل اليوم » .. ؟
فيقولون له : تنجزه فى الغد ..
فيجيب : « لقد قدحنى عمل يوم واحد حتى سألتهمونى ان أريح
نفسى ، فكيف اذا اجتمع على عمل يومين » .. !!
انه لا يجرى حسابه الختامى كل شهر ولا كل أسبوع .. بل لكل
يوم مسؤوليته وحسابه الختامى ، ولا يحيل يوما على آخر . لان لكل
يوم مزدحمه وأحماله .. !!
وهو بالنسبة لعشرات الملايين التى تنظمها دولته الواسعة .
نداء النجدة .. لا تهتف به حاجة فرد ولا مظلمة مظلوم فى أدنى الارض
وأقصاها الا ألفته وكأنه فى انتظارها وحدها .. !!
وصغار الامور عنده مثل كبارها .. لها نفس الاهتمام والمسارة
حمل اليه بريده يوما رسالة من الجيزة بمصر .

أما صاحبة الرسالة فاسمها « غرتونة السوداء » تشكو لامير المؤمنين . أن لها حائطا — أى بستانا — متهدما يتسوره اللصوص فجاجها ، وليس معها مال تنفقه في هذا السبيل .

ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة وهو في عاصمة خلافته بالشام حتى يكتب الى واليه على مصر « أيوب بن شرحبيل » هذا الخطاب :
« من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، الى أيوب بن شرحبيل
.. سلام الله عليكم .. »

« أما بعد ، فإن غرتونة السوداء كتبت الى تشكو قصر حائطها ، وأن دجاجها يسرق منها ، وتسال تحصينه لها .

ونفس البريد الذي حمل هذا الكتاب لوالى مصر . حمل كتابا آخر من الخليفة لغرتونة السوداء ..

« من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين الى
غرتونة السوداء .
.. سلام الله عليك .. »

« أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، وما ذكرت فيه من قصر حائطك حيث يقتحم عليك ويسرق دجاجك .

« وقد كتبت الى « أيوب بن شرحبيل » أمره أن يبنى لك الحائط حتى يحصنه مما تخافين أن شاء الله » .. !!

يقول ابن عبد الحكم الذى روى لنا هذه الواقعة الباهرة :

« فلما جاء الكتاب الى أيوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى أتى الجيزة ، وظل يسأل عن « غرتونة » حتى وجدها

هاذا هي سوداء مسكينة ، غاعلى لها حائطها « .. !!
هذا خليفة قديس لم تغلت من رحمته وحسناته وعدله وأبوته
شاردة ولا واردة .. !!

ولسوف يتسع قلبه الكبير وعزمه القدير لكل شيء ..

انظروا .. !!

انه يكتب لواليه على مصر أيضا :

« أما بعد .. »

« فقد بلغنى أن الحماليين في مصر يحملون على ظهور الابل
فوق ما تطيق .. »

« هاذا جاءك كتابى هذا ، فامنع أن يحمل على البعير أكثر
من ستمائة رطل .. !! »

بل انه ليبصر في بعض جولاته أناسا يحملون مقارع ، في اسفلها
حديدة مدببة ينخسون بها دوابهم ، فلا يكاد يستقر في مجلسه حتى
يوقع قرارا يحرم استخدام هذه المقارع .. ؟!

وتأتيه يوما سلتان كبيرتان مملوءتان من رطب الاردن فيسأل :
ما هذا ؟

فيقال : رطب بعث به أمير الاردن الى أمير المؤمنين .

ويعود يسأل : وعلام جىء به .. ؟

فيقال له : على دواب البريد ..

فيهز رأسه ، ويقول :

« لقد حمتبوها فوق طاقتها .. بيعوا الرطب .. »
واشتروا بثمنه علفا لدواب البريد التى حملته .. » !!

* * *

ويبهرتا لينه ، واناته ، وسعة صدره التى لم تعرف حدودا .
وفى تتبعنا لهذه الفضيلة لديه ، نجدها تتبع من رحمته العميقة
الاصيلة — هذه الرحمة الذكية التى لم تكن تعنى مجرد المشفقة بالناس
بل تعنى القيام بحقهم فى بذل العون لهم حتى يتغلبوا على نوازع الشر
فيهم ، وعلى هواجس النفس ، ونقاط الضعف ..
وانا لتسمع هذا النبض الحنون النبيل من خلال دعائه الذى
كان يضرع به الى الله كثيرا :
« اللهم زد محسن أمة محمد احسانا ، وأرجع مسيئتهم
الى التوبة .. اللهم ، وحط من أوزارهم برحمتك » . !!
انه لا يتحسس الاخطاء ، ليعاقب عليها . بل ليعالجها فى رحمة
وحسان .
وان اخطاء الناس لتشفله الى المدى الذى رأيناه حيث لا ينظر
اليها كحاكم ، بل كعابد . يصلى من أجل مغفرتها وانهاض ذوبها .. !!
وهو لا يستبقى أناته وحلمه وسعة صدره وتسامحه ، داخل
اطار ذاته — كخلق شخصى له فحسب .. بل يحولها الى فلسفة للحكم
ومنهج .

ولطالما كان يوصى كل وال من ولاته بهذه الوصية :

« اذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك دون الكى ، فلا
تكوينه ابدا .. !! »

ولقد كان من حق حكام الاقاليم قبل عهده أن ينفذوا حكم القتل
فيمن يشاعون عدلا ، أو ظلما .

فلما ولى ، حرمهم هذا الحق ، وأصدر أمره الا ينفذ حكم القتل
فى احد ، حتى يطلع بنفسه على قضيته ، ويرى فيها رأيه .

وراح يتجنب كل عنف وقسوة قائلا :

« والله لا أصلح الناس بهلاك دينى » !!

* * *

على أن رفقته وأناته اللذين وستعا أمته جميعا ، لم يكونا مطمعا
يفرى باستضعافه أو مخادعته ، فقد كان هناك الحزم اليقظ لكل من
تسول له نفسه عبثا ، أو فتنة .. !!

ولقد كانت فضائله كلها مهياة على الدوام لحماية مواقعها وأداء
دورها . فلا يجىء موقف يتطلب الرحمة ، فيجدها غافية .. ولا موقف
يتطلب الحزم ، فيجده كليا .. !

ولقد نراه مع عامة الناس ينتفض كالعصفور تواضعا وحنانا
ورحمة .

ثم نراه مع الجبارين اسدا يزار .. وجلالا يهاب .. !!

بعد أن يئس الأمراء الأمويون من استرداد أقطاعاتهم وثرواتهم

بالضراعة والحيلة ، اغروا واحدا منهم وهو « عمر بن الوليد بن عبد الملك » بالكتابة اليه مهددا متوعدا . . فكتب يقول :

« أما بعد ، فقد أزريت بهن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت
« بغير سيرتهم ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل وعملت
« بغير الحق في قرابتك . وعمدت الى اموال قريش
« ومواريتهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلما وجورا
« وعدوانا .

« غاتق الله يا ابن عبد العزيز ، فانك توشك الا تطمئن
على منبرك . . . » !!!

وفي نفس اللحظة التي يفرغ الخليفة فيها من قراءة هذا الخطاب
المتسم بالسفه والطيش ، يتقدم خلق الحزم الصارم ليؤدى دوره تجاه
الباطل الذى يتوعد الحق باسترداد سلطانه وبهتانه . . !!

ويكتب امير المؤمنين رده :

« من عمر امير المؤمنين ، الى ابن الوليد . .

« سلام على من اتبع الهدى . .

« أما بعد ، فعهدى بك كنت جبارا شقيا ، والآن تكتب
تتهمنى بالظلم ، لاننى حرمتك واهل بيتك من مال
المسلمين ما هو حق للضعيف والمسنكين وابن السبيل . !

« الا ان شئت أخبرتك بمن هو اظلم منى وأترك لعهد الله
انه ابوك الوليد ، الذى حين كان خليفة للمسلمين
استعملك عليهم صبيا سفيها تحكم فى دمائهم واموالهم . !

« غويل لك ، وويل لابيک — ما أكثر طلابکما وخصماء کما
يوم القيامة .. »

« وأظلم منى وأترك لعهد الله . من استعمل الحجاج بن
يوسف . يسفک الدم الحرام .. »

« وأظلم منى وأترك لعهد الله ، من استعمل يزيد بن أبى
مسلم على جميع المغرب . يجبى المال الحرام .. ويسفک
الدم الحرام .. »

« ألا رویدک يا ابن الوليد . غلو طالعت بى حياة لاتفرغن
لك ولاهل بيتک حتى اقيمکم على المحجة البيضاء .. !! »

لنضع خطابه السابق الى « غرتونة السوداء » تجاه خطابه هذا
الى ذلك الأمير الأموى المتجبر ، لنرى فى غير تعليق كيف كانت تعمل
مضائل هذا الانسان الباهر الجليل .. !!

ان الرجل الذى يجلس للناس على الارض وهو خليفة ..

الانسان ، الوديع ، العذوب ، يتحول الى اعصار مدمدم امام
جبروت الباطل انى يكون .. !!

ومثل هذا الموقف من الأمراء المتمردين . موقفه من امبراطور
الروم .

لقد اخبر ان أحد جنود الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية
وكان مقاتلا شديد البأس ، قد وقع أسيرا فى ايدى الرومان . وحمل
الى الامبراطور الذى حاول اكراهه على الخروج من دينه الاسلام ،
ورفض الأسير .. فأمر الامبراطور ان تسمل عيناه .

بلغ النبأ — أمير المؤمنين — غهب حزمه الشديد ليعالج الموقف .

وحمل قلمه وكتب الى ملك الروم :

« أما بعد ..

» غقد بلغنى ما صنعت بأسيرك فلان .. .

« وانى أقسم بالله . لئن لم ترسله الى من غورك لابعثن

اليك من الجند ما يكون أولهم عندك وآخرهم عندى » . !

ويعود الأسير الى وطنه وأهله .

* * *

وهو ذو يقظة شاملة ، لا تتجلى فى الانجاز وحده — بل وفى رؤية

القضايا ، وادراك الكليات والتفاصيل .. .

ولو تتبعنا كتبه الى ولاته لوجدنا من آيات يقظته وشمول نظره

ومطافته ما يبهز الأبواب .

فلنقتنع ببعض فقرات من تلك الكتب :

* « اتبعوا ما أحل الله وحرموا ما حرم واعتزوا بحقه

تعالى ، واحكموا بما أنزل .

* « افتحوا للمسلمين باب الهجرة .

* « دعوا الناس يتجروا بأموالهم فى البر والبحر ،

لا تحولوا بين عباد الله ومعايشهم .

* « أبيحوا أرض الحمى للمسلمين عامة ، وليكن حق

الامير فيها كحق واحد منهم .

- « الخمر باب الخطايا ، فحرموا كل مسكر . »
- « كافحوا التطغيف في المكيال والبخس في الميزان . »
- « لا تتجروا وأنتم ولاية ، فان الامر اذا اشتغل بالتجارة استأثر ، وأصاب ظلما ، وان حرص الا يفعل . »
- « لا تأخذوا من اموال الناس الا الحق الذي شرعه الله ، وما عدا ذلك فضعوه كله — لا افرق بين مسلم وأهل كتاب . »
- « ضعوا السخرة عن الناس ، وليكن لكل عمل اجره . »
- « ردوا المزارع لما خلقت له ، فانما جعلت لارزاق المسلمين كافة . »
- « لا تتخذوا على ابوابكم حجابا يمنعون نوى الحاجات والمظلومين . »
- « اقمعوا صوت العصبية والقبلية ولا تدعوا الناس يقول احدهم ، انا مضرى ، ويقول الآخر : انا يمنى ، فالؤمنون اخوة . »
- « الخيل عدة الجهاد ، فلا تدعوها تركض في غير حق . »
- « امنعوا النساء ان يفتشن شعورهن ويخرجن نائحات وراء الموتى . »
- « قاتلوا هواكم ، كما تقتلون اعداءكم . »
- « سدّدوا المخالفين ، وبصروهم ، وارغقوا بهم ، »

وعلموهم ، فان اهدتوا كانت نعمة من الله وفضلا . .
وان ابوا فتحروا الحق فيما تنزلون بهم من عقاب .
* « اكثروا من دعاء الله بالعافية لانفسكم ولبن ولاكم
الله امره ، فان لكم في اصلاحهم اكثر مما لهم . .
وعليكم من فسادهم اكثر مما عليهم .

* « تعاهدوا حجابكم ورؤساء حرسكم وشرطكم
والعاملين معكم ، واكثروا المسألة عنهم حتى تستيقنوا
انهم لا يرتكبون غشما ولا ظلما .

* « لا ياخذنكم الزهو بنظر الناس اليكم ، ولا يحدithهم
عنكم . وضعوا اعينكم على الذى هو ابر واتقى
واخلص لله رب العالمين .

* « اتركوا اعمالكم عند حضور الصلاة ، فان من اضاع
الصلاة كان لما سواها اضيع .

* « تحروا الحق ، ثم اعملوا به بالغما ما بلغ بى وبكم . .
حتى وان ذهب بحياتنا وبمهج انفسنا . . » !!

هذا نموذج من اوامره وتوجيهاته يكشف عن يقظة شاملة لتفكيره
ومشاعره وارادته .

يقظة تعطى الجزئيات نفس الاهتمام الذى تعطيه الكلديات !!
وبهذا المنهج الذى يستمد من قداسته ، وغلظته ، وعزمه قطع

ابن عبد العزيز طريقه وثبا ، متخذا من الانجاز وسرعة الحركة طابعا
لمسيرته المباركة .

لقد كانت مسؤوليته عن كل شيء واضحة وضوح الشمس ،
ومشكلات الدولة والامة لا تنتظر من يكشف عنها او يفلسفها ، بل تنتظر
من يواجهها بذمة وصدق وحسم ، فقيم اذن يكون تلفت او انتظار . . ؟!

ومن هنا انطلق ينجز ، وينجز ، وينجز . . معطيا كل مسؤول
مسؤوليته ، آمرا اياه ان يمضي بها في شجاعة وحكمة وأمانة .

أجل ، لقد كان ينهى ولاته عن ان يكونوا امعات او متواكلين ،
هيابين .

وانه ليرضى اعظم الرضا عن ولاته حين يراهم مقبلين على
مسؤولياتهم في شجاعة ، منجزين اياها في حزم ، ميممين وجوهم وانفدتهم
صوب الحق وحده ، لا يعدلون به احدا حتى الخليفة نفسه .

« اذا ارسلت اليكم امرا يخالف الحق . .

« فاضربوا به الارض . .

« واستمسكوا بالحق وحده » !!!

وكان يعينهم على قهر التخوف من المسؤولية ، بمنحهم قدرا
كبيرا من اللامركزية ، والاستقلال .

ارسل يوما الى احد ولاته امرا ، فارسل الوالى يستوضحه
ببعض التفاصيل . فتجههم الخليفة وكتب اليه من قوره :

« اما بعد . .

فأراك نو أرسلت اليك : ان أذبح شاة ووزع لحمها على
 الفقراء ، لا أرسلت الى تسألني : ضائنا أم ماعزا ؟ .
 فان أحبتك . . أرسلت الى تسألني :
 كبيرة ، أم صغيرة ؟
 فان أحبتك ، أرسلت تسأل : بيضاء ، أم سوداء . ؟ !!
 « اذا أرسلت اليك بأمر . فتبين وجه الحق فيه . ثم
 أمضه » . !!

انه لا يريد ان نمتلك حقوق الناس وتتعثر في شكليات عميقة .
 انه يجد نفسه مسؤولا عن كل خطأ ، او مظلمة تبقى دقيقة من
 الزمان . . ومن ثم فهو يقطع الايام وثبا وراء كل خطأ حتى يصلحه ،
 ووراء كل حق حتى يؤديه لصاحبه . . !!
 ويمثل هذا الحسم والانجاز . كان يفسر كل وال ، او قاض ،
 أو أمين أو رئيس شرطة ، أو مسؤول لا تثبت التجربة السريعة الصادقة
 أنه في مكانه . . واذا خدع في أحد غظنه للمنصب اهلا ، ثم تبين له انه
 غير اهل ، لم ينظره لحظة تحت تأثير حرج او مجاملة .
 ولقد ملأت يقظته وانجازته بلاد الدولة اعمارا وحياة ، وفجرت
 طاقات الناس تفجيرا .

وعلى الرغم من انه كان يرى القدوة التي يقدمها للناس جميعا .
 تفعل فيهم فعل السحر ، وتجري من ضمايرهم وسلوكهم مجرى الدم
 في العروق ، فانه مع ذلك لم يغفل عن مراقبة تنفيذ منهجه بنفسه . .
 فنراه ينتقل في مواطن كثيرة متخفياً ومتنكرا يسأل ، ويفحص . .

ولم تكن فى الحياة بأسرها متعة تشيع فى روحه البهجة والغبطة
مثلا يرى أو يسمع أن ظلما قد دحض . . وان عدلا قد نهض . . وان
حقا قد رد لصاحبه فى غير جهد منه ، أو الحاف . . !!

ركب يوما فى إحدى جولاته هذه ، مصطحبا معه مولا «مزام»
حيث خرجا الى مفارق طرق بعيدة تعبرها قوافل المسافرين .
وهناك راح وهو متنكر فى ثيابه يسأل الغادين منهم والرائحين .
ومن بين هؤلاء رجل فى إحدى القوافل ، اقترب منه «عمر» وسأله:
« كيف تركت الناس فى بلدك . . ؟ »

فقال الرجل : ان شئت جمعت لك خبرى ، وان شئت بعضته
تبعيضا . . !!

فابتسم الخليفة ، وقال : بل أجمعه — أى ، أوجزه .
قال الرجل :

« تركت البلاد ، الظالم بها مقهور . . والمظلوم
منصور . . والغنى موغور . . والفقر مجبور » . .

وسارع «عمر» بالانصراف بعيدا عن محدثه قبل أن تشى به
انفعالاته ودموع الشكر التى راحت تتحدر من مآقيه .

وولى مسرعا . مسرعا . وقلبه انشكور ، ولسانه الذكور
يضرعان الى الله بآيات الحمد والثناء .

والتفت الى «مزام» وقال له :

« والله ، لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل ،
لأحب الى مما طلعت عليه الشمس » . . . !!

□ كتب المؤلف □

- | | |
|----------------------------|-------------------------------|
| ١ — من هنا .. نبداً | ١٥ — في البدء كان الكلمة |
| ٢ — مواطنون .. لا رعيا | ١٦ — كما تحدث القرآن |
| ٣ — الديمقراطية ، ابداً | ١٧ — وجاء ابو بكر |
| ٤ — الدين للشعب | ١٨ — مع الضمير الانسانى |
| ٥ — هذا .. او الطوفان | في مسيره ومصيره |
| ٦ — لكى لا تحرقوا في البحر | ١٩ — كما تحدث الرسول |
| ٧ — لله ، والحرية | ٢٠ — ازمة الحرية في عالمنا |
| ٨ — معا على الطريق ، | ٢١ — رجال حول الرسول |
| محمد والمسيح | ٢٢ — في رحاب على |
| ٩ — انه الانسان | ٢٣ — وداعا .. عثمان |
| ١٠ — افكار في القمة | ٢٤ — ابناء الرسول في كربلاء |
| ١١ — نحن البشر | ٢٥ — معجزة الاسلام : |
| ١٢ — انسانيات محمد | عمر بن عبد العزيز |
| ١٣ — الوصايا العشر | ٢٦ — عشرة ايام في حياة الرسول |
| ١٤ — بين يدى عمر | ٢٧ — والموعد الله |
| | ٢٨ — الدولة في الاسلام |

مطبعة دار المآل العربى

٢٣ شارع الظاهر بالقاهرة تليفون ١٠٦٧٠٦

هذا الكتاب

علينا — نحن المسلمين — أن نعيد القرآن العظيم إلى مكانه العالى فى قلوبنا وحياتنا، ونشد على راية الإسلام بسواعد قوية متفانية ..
وعلىنا أن نفيد من كل فرص التقدم التنظيف دون أن نسلم رقابنا للأغلال، وديننا للضياغ، وروحانيتنا للجفاف ..
علينا أن نذكر أن دورنا مع حركة التاريخ وصنع الحضارة لا يزال قائما، وأن الإسلام الذى نحمل لواءه لم ينته، ولن ينتهى دوره فى ترشيد الحياة وهداية البشر، كما لن تنتهى حاجة البشرية إليه؛ لأن عظمتة الفريدة ماثلة فى أنه يقدم مع حضارة المادة حضارة الروح ..
وأخيرا، علينا أن نعمق إيماننا بأن الإسلام
دين، ودولة ..
حق، وقوة ..
ثقافة، وحضارة ..
عبادة، وسياسة ..

— من الكتاب —

Bibliothèque Alexandrina



0332615